رحلة في جبل حوران

(مقتطفات)

القس بورتر

ترجمة:

سلامة عبيد

رحلة في جبل حوران
(مقتطفات)

القس بورتر

القس بورتر
رحلة في جبل حوران (مقتطفات)

في صيف سنة (1852) رفض دروز حوران أن يقدّموا مجندين فأصدر الأمر إلى القائد الأعلى بأن يسير إليهم بكل ما تحت إمرته من قوّة، وقد تعرّضت حملته للفشل في عدّة مناوشات شديدة الوطأة.

وهكذا اضطر إلى سحب جيوشه قبل حلول الشتاء، بعد أن ترك بعض المخافر القوية لحماية سهل دمشق من – العصاة – لم يكن التجوّل مأموناً في الأقسام الشرقية والجنوبية من السهل عندما كانت الأعمال العدائية قائمة، أمّا الآن وبعد أن انتهت المعارك ففي الإمكان القيام بسفر آمن إلى حدّ ما.

الفصل العاشر

رحلة على أطراف الصحراء في الطريق إلى باشان

أحسستُ منذ أن وصلتُ إلى دمشق لأوّل مرّة برغبة جامحة تدفعني لزيارة مملكة باشان القديمة فقد سبق لي أن سمعت الشيء الكثير عن مناظرها الموحشة وخرائبها الغريبة ومدنها المقفرة، مما جعلني أصمّم على التجوّل في تلك المنطقة عاجلاً أو آجلاً.

إن المصاعب التي كانت قائمة والأخطار التي ظهر أنها تهدّد كل ذلك زاد تشوّقي وعزمي غير أن الفرصة لم تسنح قبل مرور ثلاث سنوات، فإن اشتعال الحرب الدرزية في صيف سنة (1852) ظهر أنّها تقضي على كل رجاء لمدة طويلة، إلا أنّ اندحار الجيوش التركية ورغبة السلطان في سلم بأي ثمن فتحا أمامي الطريق فقام مستر وود القنصل الإنكليزي بناءً على طلب الحكومة بدور الوسيط فنجح نجاحاً تاماً بما عهد فيه من اللباقة، لقد كان نفوذه بين الدروز في الماضي كبيراً جدّاً ثمّ

ازداد اتساعاً وعمقاً، وفي أواخر كانون الثاني (1853) أحاطني علماً بأنه صار بالإمكان القيام بجولة في باشان وقد تلطّف فزوّدني برسائل توصية إلى زعماء الدروز البارزين، وبعد أن قمت بكل الترتيبات والاستعدادات اللازمة غادرت دمشق في 31 كانون الثاني مستفيداً من قافلة كانت في طريق عودتها من دمشق إلى جبل حوران.

كان رفيقا سفري جيمس بارنت ومستر كويل وهو رحّالة أمريكي وكان معنا نقولا وهو ترجمان وإبراهيم وحاتم وهما خادمان، وقد سافرنا دون خيام ودون أي نوع من الأثاث أو الحقائب غير أننا كنّا مسلّحين تسليحاً حسناً يبرّره التخوف من التعصب الديني قبل أن نصل إلى منطقة الدروز الذين كنّا ننتظر منهم استقبالاً وديّاً وبالإضافة إلى هذا فقد كنّا نحلم أن الحرب الأخيرة قد ملأت المنطقة بقاطعي الطرق وكانت الضمانة الوحيدة للتخلص من أذاهم هي المقدرة على ردّ اعتدائهم.

مكثنا في قرية نجها بعض الوقت لفحص معالم المنطقة ومشاهدة القافلة التي كانت تقطع السهل بشكل مجموعات من الجمال متتالية فتساهم في امتداد ذلك الخليط من البشر والحيوان في الضفة الثانية من النهر.

بدأت الريح الباردة يصحبها بعض الرذاذ تنفخ في وجوهنا ولذا تلفعنا بعباءاتنا وأسرعنا على صهوة خيولنا ننحدر ونسير خبباً في المرج باتّجاه شاطئ النهر.

وقد أُقيم هنا على نهر الأعوج جسر قديم متين من الحجارة وبعد أن قطعناه قدنا خيولنا بالأعنّة إلى وسط القافلة التي بلغ عددها حتى الآن عدة مئات من الجمال لقد بدا لعينينا مشهد من الفوضى والارتباك، وأصاب أسماعنا أصوات متنافرة ذكّرتنا ببرج بابل.

جمال أفلتت من سائقيها تهيم على وجهها مهددة بتحطيم ما تُصادفه في طريقها وأخرى يركلها البدو بأقدامهم لتنوخ فترغى

فاتحة أشداقها كلّما أنزلت عنها أحمالها أو حزمت على ظهورها، والرجال يصرخون بأصوات مرتفعة تختلط بأصوات الجمال وكانوا يركضون هنا وهناك للحفاظ على حيواناتهم أو لمساعدة رفاقهم بينما راح آخرون يتناقشون وهم يلوحون بأيديهم بطريقة مستهجنة في الشكل الملائم لحزم حاجياتهم وتأمين سلامتها.

وفي أثناء ذلك عاد جميع التائهين والشاردين إلى مراكزهم بينما شوهد الذين اضطرّوا إلى التأخر يستحثون حيواناتهم بسرعة متزايدة، من هذا المكان انطلقت القافلة في سيرها ومنذ الآن أشير بوجوب المحافظة على النظام فقد أعلمنا بأن سلامة المجموع كانت تتوقف على هذا الأمر إذ أننا قد دخلنا مناطق البدو الذين لا يعرفون الحق بل القوة.

وهكذا كان تقدمنا معرضاً للخطر في كل لحظة وبناء عليه فقد أخذ كل رجل يتأكد من سلامة أسلحته ويهيء نفسه لمقابلة

كل اعتداء فإن هجمات البدو عندما تشنّ تكون مباغتة وصاعقة ولذا وجب أن تكون المقاومة حازمة وسريعة إذا أريد لها النجاح.

الطريق في فصل الشتاء هي في الغالب مأمونة إلى حدّ ما بسبب من أن القبائل البدوية تكون بعيدة جداً على ضفاف الفرات إلا أن الحرب الأخيرة جعلت هؤلاء السلابين الجريئين يتركون منازلهم المعتادة ويتحمّلون المطر والبرد أملاً في النهب.... ولذا لم نكن متأكّدين من سلامة سيرنا غير أننا كنا متأكدين وواثقين من قوة قافلتنا مهما يكن من أمر.

بعد أن قضينا نصف ساعة في ترتيب الأحمال وإعادة النظام، نادى المنادي فسارت القافلة في رتل طويل يقرب من ثلاثة أميال.

ركضت بفرسي نحو مقدمة القافلة فلحق بي هناك رفاقي ومسيحي اسمه موسى بدا أنه رئيس القافلة، كان موسى أحد معارفي القدماء فلم يستغرب كثيراً وجودي هنا وهو ابن خوري

الهيت وهو الطبيب الرئيسي في جبل حوران ممّا جعله موضع احترام كبير وصاحب كلمة نافذة وعندما رأيته لأوّل مرة في دمشق دهشت لملامحه المشرقة، فخدّاه حمراوان ولحيته عريضة سمراء أما الآن فإن منظره أشدّ تأثيراً في النفس بكوفيته الزاهية ووجهه الصبوح لقد كانت ملامحه مباينة بشكل واضح لملامح رفاقه السمر ذوي المظهر القاسي فكان يركب فرساً بيضاء أصيلاً وكان يبدو عليه من ملبسه وحاجياته ما يؤكد أنه رجل ذو مكانة مرموقة.

❖ ❖ ❖

في بــراق

سرنا فوق أكوام من الصخور والحجارة حتى وصلنا إلى باب منخفض دخلنا منه إلى قاعة فسيحة يظهر أن هذا البيت الذي نزلنا فيه لم يحدث فيه أي تغيير، في مظهره الداخلي على الأقل بعد أن تركه صاحبه القديم، فالجدران الضخمة المبنية من الحجارة لا تزال متينة على حالها والربد المصنوع من البازلت الأسود والذي يكّون سقف الغرفة لا يزال مرتباً حسن التركيز كأنما نفض العمّال يدهم منه في الأمس القريب وكان الباب قائماً في مكان لم تنل منه العصور الطويلة.

إن هذا الأمر لا يبدو غريباً في أرض سلم ومدنية حيث يحافظ الناس على الآثار القديمة بعناية روحية إلا أن الأمر في هذه المنطقة مختلف فكل شيء فيها خرب فالمنطقة قائمة على أطراف الصحراء حيث ظل البدو سنوات طويلة يطردون الفلاحين البسطاء المسالمين كلّما حاولوا الاستقرار.

إن وجود مثل هذا البيت التام في كل أقسامه لا يمكن له إلا أن يملأ المسافر دهشة ويعود الفضل في صيانته إلى متانة بنيانه وهو يحتاج إلى جهد عظيم لتهديمه فالجدران تقرب سماكتها من أربعة أقدام في القسم الأعلى منها وهي مبنية من الحجارة الضخمة ركز بعضها فوق بعض دون ملاط أما السقف فهو مؤلف من قطع من الحجارة الطويلة تقرب سماكتها من 6 إنشات وعرضها 18 إنشاً وطولها 12 قدماً وهي مصقولة بعناية يلز بعضها بعضاً دون أن يترك أي مجال بينها في حين ترتكز أطرافها على الحجارة الأخرى التي تبرز من الحائط مسافة قدم فتشكل بذلك رفرافاً بارزاً.

كان الباب الخارجي الذي دخلنا منه قطعة واحدة من الحجر علوّها أربعة أقدام وسماكتها ثمانية إنشات وهي تدور حول محورين هما امتداد من الحجر نفسه ولهما ثقبان في العتبة العليا والسفلى ولهذا السبب كان من الصعب إزاحتها وقد رأيت بنفسي مئات من هذه الأبواب قائمة في أمكنتها بينما تحوّلت الأقسام الأخرى من البناء إلى أكوام من الخراب، إن

أول قاعة دخلناها طولها عشرون قدماً وعرضها 12قدماً، وعلوّها ما يقرب من عشرة ومن هذه الغرفة ينفتح باب آخر على غرفة مماثلة بالشكل والحجم ومن هذه الغرفة الثانية ينفتح باب أوسع على غرفة ثالثة ينحدر إليها الإنسان بدرج من الحجارة وكان عرضها مساوياً لعرض الغرفتين السالفتين معاً وطولها حوالي خمسة وعشرين قدماً وعلوها عشرين قدما تحمل سقفها الحجري قنطرة نصف دائرية موازية لطول القاعة وكان بابها واسعاً إلى درجة يسمح للجمال أن تدخل وتخرج منها.

هذا مثال من بيوت براق وهو اسم القرية التي كنا نستريح فيها وهذا البيت مثال صادق لبيوت حوران، إن كثيراً من هذه البيوت لا تزال سليمة غير أن الأكثريّة تحول إلى ركام من الخرائب وبعض هذه البيوت ضخم واسع يقوم في وسطها باحات واسعة تفتح عليها أبواب الغرف والبعض الآخر صغير عادي إلا أنها جميعها ضخمة البنيان بسيطة التخطيط وهذا دليل على تقادم عهدها.

لم أستطع في الظلمة أن أتأكد شخصياً من اتساع البلدة والشكل العام لأبنيتها غير أن الرجال الذين كانوا يجلسون حولنا كانوا يعرفونها جيداً وقد أخبروني بأن بيوتها جميعاً على نمط واحد وأنه ليس فيها أبنية عامة جميلة أو طريفة وبراق واقعة في الزاوية الشمالية الشرقية من اللجاة تحف بها أكوام ضخمة من الصخور بينها ممرات متعرّجة وهي في الغالب لا تصلح لسير الخيول.

سبق لبركهاردت أن زار براق سنة 1812 بعد أن قطع السهل بطريق الديرعلي ومرجانه وقد وصفها على الشكل الذي وصفناه هنا وقد نقل نقشين يونانيين بين خرائبها غير أنهما ليسا بذي قيمة ويعود تاريخ أحد هذين النقشين على ما يظهر إلى سنة 304 ق.م.

كانت جدران الغرفة وأرضها رطبة إلى درجة أخافتنا من عاقبة النوم فيها وجعلتنا نصمم على قضاء الليل بالسهر، وتجمع العرب حولنا في لهفة ليستمعوا إلى الحكايات الشيّقة

وكان كل واحد مستعداً لأن يضيف قصته إلى هذه المجموعة المشتركة من القصص.

كان موسى المحدّث الرئيسي فقد روى لنا بعض الحوادث القاسية في حياة العرب وحروبهم وكان مسرحها السهل الذي قطعناه.... كان يرتاد هذا السهل قبيلة السبيعات وكان سكان حوران في قتال دائم معها وكانت هذه القبيلة ترقب هذا السهل بانتباه خلال فصل الخريف عندما يحمل الفلاحون محصولهم من الحبوب إلى دمشق وعندما كانت تسنح لهؤلاء البدو الفرصة كانوا ينبّهون التائهين أو القوافل وكان يحدث أحياناً بعض المعارك الضارية عندما يكون الهجوم عنيفاً ومن هذه الحوادث أروي واحدة ساهم موسى نفسه كنموذج للحكايات التي كانت تسلّينا عندما كنّا نجلس في بيت من قرى باشان القديمة وكشاهد على الحالة في أطراف سورية.

منذ سنتين كانت قافلة مؤلفة من الدروز والمسيحيين قد غادرت دمشق في الصباح الباكر وأخذت طريقها إلى نجها

والسهل وقد ظنّ عدد من المسيحيين ونفر من الدروز أن الطريق أمينة ورأوا أحمالهم خفيفة فسبقوا في سيرهم القافلة وكان عدد هؤلاء حوالي ثلاثين رجلاً ومعهم أكثر من مائة جمل غير أنه لم يكن معهم غير ستة أشخاص أو سبعة يحملون البواريد وبعد أن قطعوا تل أبو شجرة وساروا بمحاذاة السفح الغربي من التلال شاهد موسى الذي كان يركب في المقدمة خيالاً يختفي بسرعة خلف هضبة على بعد نصف ميل من الجهة الشرقية فطلب من الجماعة أن يحطوا رحالهم فتبرع أحد الدروز بالذهاب إلى قمة تل قريب للتأكد من وجود أي جماعة من قطاعي الطرق فعاد وأفاد بأن الطريق أمين وهنا أظهر البعض رغبتهم في انتظار وصول القافلة ولكن الأكثرية سخرت من هذا الاقتراح فتابعوا سيرهم ولم تنقضِ نصف ساعة حتى استولى عدم الاكتراث على أشد الرجال حذراً ويقظة غير أن سحابة من الغبار ظهرت بعيداً إلى الجهة الشرقية فكانت دليلاً على اقتراب العدو وتقدّمت هذه السحابة في السهل وفي بضع دقائق أناخ

موسى ورفاقه جمالهم وعملوا منها دائرة مغلقة بينما وضعت في الوسط الجمال التي كانت تقطر غيرها بحبال متينة وأخذ الرجال مراكزهم في أماكن مختلفة من هذه المتاريس الحية عندئذ اقترب البدو المغيرون وكان عددهم سبعين رماحاً فصوّب دروز القافلة بنادقهم فتردّد المغيرون وعندما تضعضع الصف الأمامي من البدو تقدّم واحد من الخيالة وهو رجل مهيب يمتاز عن الآخرين بعباءة قرمزية ونادى رجاله ليتبعوه ثم انطلق هجومه.

أطلق الطلقة الأولى أحد الشبان الدروز ولكنها كانت طائشة وتبعتها طلقة ثانية أصابت من فرس الزعيم البدوي مقتلاً فوثبت في الفضاء وثبة هائلة ثم سقطت مجندلة في السهل فوثب راكبها واقفاً وراح يحرض رجاله على الهجوم فتتابعت الطلقات من الدروز والمسيحيين على البدو الذين كانوا يحاولون أن يصلوا إليهم برماحهم وتتابعت محاولات البدو وجهودهم لاختراق حلقة الجمال غير أن الحيوانات كانت تكتفي بالرغاء غاضبة

وترفس الأرض عندما كانت تصيبها الرماح فقد كان بعضها مشدوداً إلى بعض بطريقة متينة ولذا كانت مرغمة على البقاء في أماكنها وفي مدى نصف ساعة سقط أربعة من البدو في السهل أمواتاً أو محتضرين وعاد زعيمهم واعتلى من جديد فرس أحد رفاقه الذين سقطوا وبعد أن جال خبباً حول السور الحي استدار ثمّ تقدّم فقطع رسن أحد الجمال بضربة من سيفه ثمّ أمسك بالزمام وهمز حصانه وهو يجرّ الجمل خلفه وتبعه جمل آخر فآخر تحت تأثير الرماح وأصوات البدو وهكذا صارت الجمال تترك محلّها تباعاً ورأى جماعة الجمّالة القلائل سورهم الحي يبتعد عنهم بسرعة ويتركهم معرّضين لأعدائهم، أحسّ موسى بالخطر فوثب من محلّه وقطع بسيفه رسن أحد الجمال واستطاع أن يعيده إلى مكانه.

وفي لمح البصر انقضّ عليه بدوي برمحه فنجا منه موسى بأن اختفى خلف الجمل واستطاع بذات الوقت أن يجرح بضربة من سيفه حصان البدوي المغير فأسرع خيّالة آخرون إلى مكان

الحادث وهجم المسيحيون والدروز بدورهم فتحرّجت الحالة ونالت الرماح من رجال القافلة فأحسوا جميعاً بأن الحظ قد خذلهم هذه المرة، عندئذ كانت القافلة قد أقبلت وفي طليعتها جماعة قليلة من الخيالة عرف من عمائمهم أنهم دروز وقد أرخوا لخيلهم العنان فاستدار البدو وفرّوا فأرسل رجال القافلة خلفهم سيلاً من بنادقهم دون نتيجة وقد رُؤيَ من الحكمة عدم ملاحقة هؤلاء البدو لأن عدد الخيّالة الدروز لم يكن يتجاوز العشرين واعتاض رجال القافلة بالفرسين اللذين غنموهما عن الخمسة والعشرين جملاً التي كسبها البدو.

❖ ❖ ❖

شباط سنة 1853

عند الساعة الواحدة والنصف بعد منتصف الليل ركبنا ولحقنا بالقافلة.

كان القمر مشرقاً استطعت على ضوئه أن أميّز معالم براق... أكوام ضخمة من الصخور ترتفع بين الخرائب وحولها وبينها أخاديد وشقوق وينتشر على صفحة الصخور المنبسطة قطع من البازلت المتفتت والطريق الذي نسير فيه كان ضيّقاً ومتعرجاً وقد صنعته يد الإنسان إذ أننا لاحظناً نحتاً عميقاً في الصخر وبعد أن تركنا الخرائب ببضع دقائق سرنا مسافة غير قصيرة فوق قناة قديمة بنيت لتحمل مياه الوادي في الشتاء إلى خزانات البلدة وهكذا بقينا ما يقرب من الساعة ونحن نتعرّج ببطء في تواهة من الصخور.

وما أن خرجنا من هذه الممرات الضيقة حتى عبرنا وادي اللوى وسرنا في سهل تتداخل فيه صخور البازلت والحقول الوعرة فتبدو في جوانبه كالمهماز الخارج من اللجاة وظهرت

الأشجار هنا وهناك على الجانب الشرقي من الوادي وبين صخور اللجاة من الجهة الغربية....

إن خرائب الصورة تمتد إلى مسافة واسعة وتشبه خرائب براق وما أن اجتزناها حتى شاهدت عدداً كبيراً من الاستحكامات المبنية من الحجارة العادية وقد أُخبرت بأن هذا المكان أحد مخيمات إبراهيم باشا في حربه سنة 1839 وقد انقضّ الدروز من ممرات اللجاة بقوة على العسكر فكسروهم وذبحوهم ذبحة هائلة وتبعوا فلول الهاربين في السهل حتى الهيجانة وكانت المنطقة إلى يسارنا مفتوحة ومنبسطة وضفاف الوادي صخرية متعرجة ووراءها اللجاة ويبدو منبسطاً من الصخر المتصدّع والأرض هنا ترتفع عن سوية السهل من 40 إلى 30 قدم.

لاح أمامنا ضوء لامع قد ظنّ رفاقنا أنه ضوء جماعة من البدو تحرس أغنامها ولكنهم عندما تأكّدوا من أن هذا الضوء خارج حدود اللجاة قالوا بأن الرعيان لا يجرؤون على إشعال النار في مكان كهذا...

لقد صرنا الآن بعيدين عن المنطقة الخطرة في تلك الطريق فصار كل واحد من القافلة يأخذ طريقه إلى بلدته وعند الفجر لاح تل الخالدية في الأفق الشرقي فقد استطعنا أن نميّز الخرائب التي تكلله عند شروق الشمس ولاحظنا أيضاً أن في السهل على شمالنا آثار فلاحة ويبدو أنه كان مقسماً إلى حقول بجدران بسيطة من الحجارة وهذه المعالم تبدأ في الجهة الشرقية من اللوى وهو الآن وادٍ ضيّق قليل المياه تقوم على ضفّتيه صخور سريعة الانحدار تمتد في السهل على مدى النظر ليس في هذا السهل أي أثر للبناء في حين تقوم على أطراف اللجاه مدن وقرى نصفها خرب ولكنها جميعاً مقفرة وكانت جميع هذه القرى متشابهة في معالمها فالبيوت منخفضة والجدران عظيمة السماكة والمتانة وكان يوجد في كل قرية عدة أبراج مربعة يتراوح ارتفاعها بين 30 و40 قدماً وهي تشبه أبراج الأجراس في الكنائس.

في الساعة السادسة والربع اجتزنا وادياً أرضه صخرية وهو ينحدر إلى وادي اللوى من الشرق وبدت على يميننا وفي إطار

اللجاة قرية حذر وفيها بعض أبنية متينة وعلى مسافة عشرين دقيقة قرية ثانية تقابل الأولى وهي أعلى منها وعلى مكان حصين إلى الجهة الشرقية من الوادي تقع قرية عظيمة الاتساع إلا أنها كانت في حالة خربة أكثر من تلك التي بنيت بين صخور اللجاة ولاح لنظرنا عدة قرى ومدن أخرى بدت كأنما بيوتها لا تزال واقفة قائمة وقد سمح لنا ضوء الصباح بأن نتبيّن بشكل دقيق معالم المنطقة فقد رأينا آثار طريق روماني يسير في خط مستقيم إلى الجانب الشرقي من وادي اللوى وهو لا يزال تاماً في بعض الأماكن وظلت أحجاره المرصوفة سليمة لم تنل منها النقليات ولا عوادي العصور وهذا الطريق على الأرجح تتمة للرصيف الذي شاهدناه في براق..

صعدت إلى قمة إحدى التلال فوقع نظري على الصخور المنتشرة في الغرب بشكل رهيب مخيف دهشت للعدد الواسع من المدن والقرى التي يقع عليها النظر فالمنطقة حولنا كانت في يوم من الأيام كثيفة السكان فكل بقعة قابلة للاستغلال على جوانب الوادي والسهل الغربي وسفوح الجبال كلها تحمل دلالات

واضحة على العناية السالفة بزراعتها واستغلالها ومع أن وجه الأرض في بعض الأمكنة شديد الوعورة إلا أن الصخور والحجارة كانت قد جمعت بشكل رجوم بينما استعمل قسم كبير منها بشكل جدران أو حدود، وبعد أن استرحنا حوالي عشرين دقيقة تقدّم منا فارس متقدم في السن ودلّنا على طريق الهيات، كانت الطريق التي أشير علينا باتباعها تصعد في سفح قليل الانحدار وهو هنا عارٍ تماماً ليس فيه أي شجرة أو شجيرة لتغير شيئاً من تجهّم المنظر.

الأرض عظيمة الخصب إلا أن صخور البازلت التي كانت ترتفع من الأرض من وقت إلى آخر وبعض قطع الصخور المتفتتة المبعثرة كانت لا تسرّ الناظر ولم يكن في هذه السفوح معالم ذات أهمية.

بعض الجبال أمامنا كانت تختفي خلف الغيوم بينما لم يبدُ إلى يميننا أو شمالنا أي شيء عدا القبتين المستديرتين لتل شيحان وتل الخالدية اللتين كانتا ترتفعان فوق الضباب الأبيض الذي كان يغلف أقدامهما وبعد أن صعدنا مدة ثلاثة أرباع

الساعة لاحظنا أول علامات الزراعة الحديثة، ووقع كذلك نظرنا لأول مرة على قرية الهيات الواقعة على سفح تل إلى الجهة العليا، ورأينا إلى يسارنا عدة قرى- شبيهة بالقصور المحصّنة وبعضها على قمم التلال وبعضها الآخر على أقدامها وظهرت علائم الحياة والعمل في الحقول في كل جهة وكانت أفدنة الثيران تقلب الأرض بسكك هي دون شك شبيهة تماماً بتلك التي كانت تستعمل في أيام السلف (الملوك الرعاة) أو تلك التي كان يستعملها رعايا العملاق عوج الذي أصبحنا الآن داخل مملكته.

والفلاح أيضاً لا يزال يحمل المساس وهو سلاح يبدو أنه يلائم يد الجندي أكثر مما يلائم يد المزارع، وهو عادة من بلوط باشان طوله أكثر من عشرة أقدام وفي أحد طرفيه حربة من حديد وفي الطرف الثاني قطعة حديد أيضاً ولكنها مسطّحة، وهكذا يستطيع الإنسان أن يدرك كيف يتمكن المحارب من استعمال مثل هذا السلاح في المعركة بشكل ناجع، وبعد أن نظرت إليه وقلبته بيدي خفّ استغرابي بالحادث الذي يروي أن شمغر قد قتل /600/ رجل بالمساس.

في الساعة الثامنة والنصف وصلنا إلى الهيات واتجهنا إلى بيت الشيخ حيث استقبلنا استقبالاً حافلاً وقد عرّفنا عن أنفسنا بأننا انكليز وكان هذا كافياً لأن يفتح لنا قلب هذا الدرزي النبيل وبيته، فأخذت منّا خيولنا وقدّم لها الطعام، وفرشت غرفة الاستقبال مجدّداً بالبسط النظيفة والمخد التي جيء بها من بيت الحريم، وأشعلت نار فحم الحطب في النقرة وجيء بالقهوة وحمصت ودقت وقدّمت كالمعتاد وتطرّق الحديث إلى الحرب الأخيرة وعن إمكانية تجديدها وكان هذا الموضوع هو الموضوع الذي كنا نتحاشى الخوض فيه حتى نكون قد قابلنا الشيوخ البارزين وقدّمنا إليهم رسائل التوصية التي نحملها وقد أبديت رغبتي لمشاهدة الخرائب وتقدّم أحد شبان الدروز ليكون دليلنا فقبلت تبرّعه بسرور لأنني كنت شديد الرغبة للتهرب من أسئلة الشيخ وأشد رغبة للبدء في التطواف بتلك الآثار العظيمة الأهمية.

الهيات مبنية على سفح تل بشكل رباعي ولا يقل محيطها عن الميل والبيوت مبنية بالحجارة المنحوتة نحتاً بدائياً وهي

غير مملطة ولكنها مترابطة بشكل متين وهي ضخمة وبسيطة في تخطيطها وهذا دليل على عهدها المتقادم، لقد اختار السكان الحاليون أحسن الغرف الملائمة لسكناهم فاستقروا فيها دون أن يتلفوا منها شيئاً ودون أن يضيفوا إليها شيئاً، والسقوف هي من الحجارة مثل السقوف في براق وكذلك الأبواب ولكني لاحظت في مكان أو مكانين أن الأبواب الحجرية قد أزيحت وحلّ محلّها أبواب من الخشب وليس في القرية أي بناء ذي جمال هندسي ولكن إلى الجهة الشرقية وبالقرب من بركة واسعة خرائب بينها قطع من واجهات البناء وحجارة السقوف وهي جميعاً مهشمة ومشوشة إلى درجة لا يستطيع معها الإنسان أن يتأكد حتى من مخطط البناء الأصلي.

وقد قدرت أنه حوالي نصف البيوت في هذه القرية لا يزال سليماً أو شبه سليم وهي صالحة للسكن ولكن لم يكن مشغولاً منها عند زيارتي أكثر من ربع هذه البيوت وعند عودتي إلى بيت الشيخ وجدت أن خادمينا قد وصلا وأن أحد الخيالة قد جاء من قبل الشيخ الهيت أسعد عامر ليوصلنا إلى مقرّه حيث

كان رفيقنا يلقى أحسن الإكرام وعندئذ ازداد اهتمام مضيفنا ودروز القرية بنا إلى حد لا يوصف فقد أكد لنا مرات عديدة أن بيته مشرق من ضياء وجوهنا وأن قريته تشرفت بحضورنا فقد رفض أن يسمح لنا بالسفر حتى اليوم الثاني وأنه لا يقبل منّا أي حجة أو اعتذار فبدأنا نخاف أن يتضارب هذا الغيض من الضيافة مع وقتنا وتنقيباتنا ولكن عندما رأى رسول أسعد حيرتنا تقدّم لإنقاذنا وحل هذه المشكلة بأن اقترح بأن نكسر السفرة في بيت مضيفنا ثم نتابع سيرنا إلى الهيت وبناء على هذا الحل حضرت الترويقة بسرعة فأكلنا بشهية فائقة من البيض والحليب والعسل وكان يقدّمها مضيفنا بكل سخاء وفي طريقنا إلى الهيت زرنا بيتاً كبيراً يبعد عن الهيات حوالي ثلاث مائة ياردة إلى الشرق وكان أمام هذا البيت باحة مرصوفة يحيط بها جدار وفيه بوابة واسعة تقابل مدخل البيت كان الباب الرئيسي مغموراً بأكوام من الحجارة الساقطة غير أنه كان هناك باب جانبي علوّه حوالي ثمانية أقدام وعرضه مثل ذلك وله مصراعان من الحجارة ويفتح على غرفة فخمة ومن هذا الباب يتعرج درج من

الحجارة يوصل إلى قاعة استقبال ترتكز مقدّمتها على قنطرة فتشبه القاعات الحديثة في بيوت دمشق ومن هذه الغرفة يسرح النظر بشكل رائع خلال هذه المنطقة حتى جبل حرمون وعلى جوانب هذه القاعة تقوم قاعات أخرى واسعة ذات نوافذ أمامية ترتفع حتى ستة أقدام ولها مصاريع من الحجارة لا تزال في أماكنها.

تركنا هذه الخربة المثيرة للاهتمام وصعدنا في سفح التل خلال حقول الحبوب باتجاه قرية الهيت فوصلنا إلى بيت الشيخ أسعد عامر فاستقبلنا بكل مظاهر الاحترام والترحيب وأدخلنا إلى المضافة وهي غرفة نصف خربة وكان يجلس فيها بعض الفلاحين وغيرهم.

كان السقف الحجري يستند على أعمدة قديمة وفي وسط أرض الغرفة حفرة مربعة تنخفض حوالي 6 إنشات تشتعل فيها وتقرقع نار عظيمة من الفحم لم يكن هناك أي مدخنة إلا أنه كان في وسط الجمر قضيب ضخم من الحديد الغرض منه منع

رائحة الغازات الكريهة المتصاعدة من الفحم المحترق وحول الحفرة أو النقرة عدد ضخم من الأباريق والغلايات ويبدو عليها أنها استعملت كثيراً ولم تغسل إلا نادراً ولم يكن بوسعي أن أعرف فيما إذا كان داخلها أنظف من خارجها فإن القهوة التي تهيأ على الطريقة العربية فيها خاصة قيمة على إخفاء كل ما تتقزز منه النفس ومع ذلك فليس باستطاعة الإنسان أن ينكر الحقيقة الحالية وهي أن القهوة على الطريقة العربية ليست شهية الطعم فحسب بل منشطة ولذيذة، وإلى جانب النقرة قطعة من الحديد مستديرة مقعرة تتصل بها قبضة طويلة من الحديد عليها نقوش غريبة بينما تعلق في رأس هذه – الذراع – سلسلة من النحاس تنتهي بملعقة من الحديد وتلك هي محمصة البن (المحماسة) ويقابلها جرن من السنديان الأسود (البطم) وقد نقشت عليه خطوط متعرجة ومتعددة وبعض الرسوم وإلى جانبه المهباج وطوله ما يقرب من قدمين وهو أيضاً منقوش مثل نبوت الهنود الحمر ولم يسبق لي أن شاهدت مثل هذه المجموعة الكاملة من أدوات القهوة.

قدمت إلى الشيخ رسائل التوصية فبعد أن قرأها وتأكد من أن القهوة قد قدّمت يشكل لائق ترك الغرفة وعاد إلينا بعد نصف ساعة تقريباً ودعاناً إلى غرفة أخرى في جناح الحريم وهذه الغرفة هيئت لنا خصيصاً وقد وجدنا هنا من وسائل الراحة ما لم نكن ننتظر فقد كانت أرض الغرفة الواسعة والدواوين (المقاعد) مغطاة بالسجاد العجمي والمساند المطرزة بالمخمل كانت مصفوفة على جوانب الجدران وكان هناك ثلاثة مناقل من جمر الفحم تبعث في الغرفة حرارة شهية عندما أدخلنا مضيفنا إلى غرفتنا الجديدة راح يعتذر ويكرر – اعتذاره. عن هذا الاستقبال والأثاث قائلاً أنه لا يليق بشأننا وأضاف إلى ذلك أن أثاثه قد نقل إلى المدينة خلال الحرب.

إن الشيخ أسعد عامر هو أحد أفراد أعرق العائلات شرفاً في حوران وهو بالإضافة إلى هذا واحد من أحسن الناس قيافة في سورية – سيّما أنه يدلّ على الأُنس وملامح وجهه تشيع الرضى والاطمئنان صوت ناعم وحركات بسيطة ولكنها مهيبة أكدت لنا المزايا التي سبق لنا أن سمعناها عنه مزايا الرجل الأنيس المضياف المهذب.

لم يكن في مظهره السمات القاسية الخشنة التي يتصف بها أبناء جلدته غير أن شفته المضغوطة وعينه الحادة، كانت تؤكد أنه لا تنقصه الشجاعة والحزم المتأصلان في الشعب الدرزي وقد علمنا فيما بعد أنه لم يشترك في الحرب الأخيرة وأنه قد أرسل كل مسيحي الهيت والهيات إلى دمشق ليكونوا في منجاة من تعديات العسكر والبدو والحقيقة أن المرء يمكنه أن يتصوّر ما قاسته هذه العائلة في تاريخها من ويلات الحروب ويسمح لنفسه لأن يبرر عدم الاشتراك بها بأن ثلاثة من إخوته وأربعة من أبناء أخوته قد قتلوا في ساحة الحرب ومن هؤلاء أربعة سقطوا إلى جانبه في يوم واحد.

كان استقباله لنا في بيته واهتمامه بنا أثناء تلك المدة القصيرة التي قضيناها عنده ما يؤكد لنا الشهرة الرفيعة التي نالها في حسن الضيافة ولولا هذه الشهرة الواسعة في الكرم ودماثة الأخلاق في سياسة الناس وتلطفه مع كل من هم تحت نفوذه، لولا كل ذلك لما كان يجرؤ على البقاء حيادياً أثناء الحرب.

إن شهرة الضيافة إلى جانب الشجاعة في القتال هي أعظم اعتبار يستطيع الزعيم العربي أن يحصل عليه وما كدنا نستقر في بيت الشيخ حتى قدم إلينا غداء وافر من العسل والدبس والسمن والحلويات وفي المساء هيئت لنا مائدة فاقت كل ما شاهدته حتى الآن خروف كامل مقلي ومحشو بالرز كان يحتل وسط المائدة وإلى جانبه منسف واسع قطره حوالي ثلاثة أقدام وحول ذلك صف ما يقرب من عشرين صحناً من مختلف الأطعمة: ديوك وشوربة وكبّة وبرغل وأشياء كثيرة أخرى وحول ذلك خبز رقيق مطوي وعلى كل طية من الخبز ملعقة من الخشب وهي الآلة الوحيدة التي تستعمل في هذه الأرض البدائية لتناول الطعام حتى الملعقة كانت من الأشياء المستحدثة فيها وكانت كل الصحون من النحاس المطلي بالقصدير وقد وضعت فوق بساط واسع مستدير في وسط الغرفة يجلس حولها الضيوف القرفصاء وكل واحد يمد يده أو ملعقته إلى الزاد ويتناول بنفسه ما يطيب له.

دعينا نحن أولاً إلى الأكل وعندما انتهينا تقدّم الضيوف الآخرون والخدم وعندئذ وضع قسم من الزاد على حدة كحصة للشيخ في حين انقضّ على ما تبقى من الطعام الجماعة الذين يعيشون في بيته من المرابعين والفلاحين الذين كانوا حاضرين.

كان هرم الرز قد اختفى قبل هذه الجولة الثالثة وقد جرّدت من عظام الخروف والديوك من اللحم تجريداً تاماً وسكب البرغل والشوربة.... في منسف واحد وأتي عليها جميعاً.

ربّما أضجرتُ القارئ في استرسالي في التحدّث عن هذه المائدة الدرزية إلا أنني أهدف من وراء هذا تبيان حالة المجتمع الابتدائية في مملكة باشان القديمة وإن الضيافة التي عرفت في العهود الأولى لا تزال قائمة فلم يكن بوسع الغرباء أن يمروا ببيت أحد المشايخ دون أن يدعى بإلحاح للدخول والإطعام وهذا ما حدث لنا هنا بالذات، فإن السرعة في إعداد الطعام عندما يذبح الخروف أو الجدي أو العجل المسمن، وعندما يعجن الطحين ويُخبز والأنواع الأخرى من الأطعمة التي تهيأ بسرعة

وتقدّم إلى الغريب كلّ ذلك يبرز في حياة الجماعة اليومية وقد خيّل إلي وأنا أتجوّل في تلال باشان بأن الزمن قد تراجع عدة قرون.

إن القصص العربية التي كنت أقرؤها في طفولتي وشبابي قد تحققت فها هي ذي خيامُ إبراهيم، وها هي منازل القبائل الأولى وها هي التحيات التي كان يقابل بها الأولون الغرباء، وها هي الأدعية بسلامتهم وسعادتهم عندما يسيرون ففي كل مكان كنا ندخله كان يُنحر لنا خروف ويهيأ خبز جديد.

كنا نصل أحياناً عند غروب الشمس إلى البيت الذي سنقضي فيه ليلتنا غير أن ألوان الأطعمة كانت تقدم في الوقت المعين، وكانت الدعوات تنهال علينا لننزل ونأكل في أي قرية كانت من قرى الدروز التي ذهبنا إليها وقد حدث مرة بعد مرة أن يمسك أحدهم بزمام فرسي قائلاً: «هل يتفضل سيدي بالنزول بينما يهيء خدامه قليلاً من الطعام».

وفي إحدى القرى أفادت شفاعتنا في إنقاذ حملٍ كنا رأيناه يساق بسرعة ليذبح حالما دخلنا شارع القرية وقبل أن ننطق بكلمة واحدة، فقد رآنا زعيم القرية نقترب فعجّل ليذبح الخروف إلا أننا وصلنا لحسن الحظ في الوقت اللازم لإنقاذه بعد أن أكدنا لصاحبه المضياف أننا لا نستطيع البقاء، وفي قرية أخرى حيث لجأنا للتخلص من سحابة ماطرة لاحظنا أن الطحين قد أخذ وسكب الماء فوقه من أجل تهيئة خبز عويص (بدون خميرة) ولم نستطع أن نمنعه من إتمام هذه العملية إلا بعد جهد جهيد.

❖ ❖ ❖

القسم الشمالي من جبل حوران

1 - شبـــاط

كان فجرُ هذا الصباح جميلاً فالسماء انقشع عنها الغيم والضباب الذي كان في اليوم الماضي يلتف حول التلال ويغطي السهول قد اختفى وكان الفضاء صافياً شفافاً فصعدتُ إلى سطح بيت الشيخ الذي يشرف منه النظر على السهل كلّه حتى جبل حرمون، إن المنطقة الواقعة بين جبل حوران إلى الجنوب الشرقي وجبل الشيخ في الشمال الغربي هي سهل يقرب عرضه من 40 ميلاً وفي جهته الشمالية تمتد سلسلة جبال الخيارة العارية وليس لهذه المنطقة في الجنوب أي حدود طبيعية غير أنها تمتد دون حواجز على مدى النظر من مرتفعات صلخد ولكننا نستطيع أن نعتبر حدّها وادي الزيدي الذي ينحدر من بصرى إلى شريعة المنذور وتشتمل هذه المنطقة على سهل حوران واللجاة وقسم من الجيذور والجولان وهذه المناطق تقابل بالترتيب المناطق القديمة التالية: أورانيتس، تراخونيتس، إيتوريا، غولانيتس.

إن اللجاة من الناحية الجيولوجية أغرب منطقة رأيتها حتى الآن وسأتحدث عنها في فرصة أخرى بالتفصيل وكذلك عن غيرها إلا أني أشير إليها هنا لأمكن القارئ من متابعتي في وصف معالمها الطبيعية، فاللجاة كما تبدو من الهيت تشبه بحيرة تحرّكها بعنف الرياح القوية فكل من سبق له أن رأى بحيرة لوموند عندما تثور عليها عاصفة في الشتاء وتصطبغ مياهها المضطربة المتدافعة بلون السماء المكفهرة القاتمة يمكنه أن يكوّن فكرة عن مظهر اللجاة كما يرى من الهيت.

إن حدود اللجاة الشرقية تنتهي بوادي اللوى وينبسط وراء هذا الوادي سهل على مدى النظر وترتفع في حوران جبال مخروطية ليس منها إلا اثنان فقط ضمن حدود اللجاة.

إن محيط الهيت يقرب من ميل ونصف ومظهر هندستها العامة يشبه الهيات أن فيها عدة أبراج مربعة إلا أنه ليس في البنايات التي ترتفع فوقها هذه الأبراج أي دليل على كونها أبنية دينية وفيها برج واحد أتقن صنعاً من غيره وإن كان يشبه في

حجمه وتخطيطه بقية الأبراج ويرتفع منفرداً عن البنايات الأخرى وهو كامل بذاته لقد لاحظت في زيارتي لهذه الجبال أن كل قرية أو مدينة تقريباً تحتوي على واحد أو أكثر من أمثال هذه الأبراج وشعوري الخاص أنها كانت مدافن فالأبراج التي وجدناها في قنوات لا تزال تحتوي على نواويس في داخلها والقبور الموجودة على سفوح التلال قرب تدمر لها ذات المزايا إلا أنها في تدمر في الغالب أضخم ومزينة تزييناً متقناً.

إن أكثر شوارع الهيت يمكن أن تبرز إذا أتيح لها أن تنظف من أكوام الخرائب والأعشاب التي تجمعت فيها خلال العصور، إنها ضيّقة ومتعرجة وهي تختلف اختلافاً بيناً عن شوارع المدن الأخرى في هذه المنطقة التي تعتبر أبنيتها رومانية أو على الأقل أعيد بناؤها في عهد الرومان البيوت ضخمة وبسيطة في تخطيطها سقوفها من الحجر وأبوابها من الحجر وبعض هذه الأبواب مزينة بأشكال نافرة طريفة ويبدو أنها في أكثر الحالات قد أضيفت على الأبواب الأصلية في ما بعد.

إن الكتابات التي اكتشفت حتى الآن في الهيت هي من العهد الروماني ويعود تاريخ أقدم هذه الكتابات إلى سنة 120 ب.م غير أنني توصلت بعد التدقيق إلى النتيجة التالية وهي أن جل هذه الكتابات إن لم يكن كلها أحدث عهداً من الأبنية التي تضمها، ويبدو أن عدة أبنية قد جرى عليها تعديل في عهد السلوقيين وأن بعض المعابد وغيرها من الأبنية العامة قد شيّدت حينذاك وفي ذلك الوقت اختفت الكتابات اليونانية وإن المرء يحتاج هنا وفي أي مكان آخر من باشان إلى الفحص الدقيق للتمييز بين الأبنية الحديثة والأبنية التي تعود الى عهد بدائي والرحالة المسرعون الذين يتركز انتباههم في الأبنية الرومانية الفخمة لا ينتبهون أبداً إلى الأبنية الأخرى الأبسط والأضخم مع أنها أكثر أهمية لكونها شواهد على هندسة الإنسان البدائية.

ليس في الهيت نبع ولكن يوجد في وسط القرية بركة يجتمع فيها ماء المطر وبالإضافة إلى هذا هناك قناة تحت الأرض تأتي من الجبال وهي لا تزال إلى الآن تحمل ما يكفي من الماء للاستعمال البيتي ويوجد خارج القرية مستودع واسع للماء تحت

الأرض كانت تنطلق منه المياه في أقنية إلى بيوت القرى الرئيسية ولم نشاهد هذه الأشياء ولكننا شربنا من الماء فوجدناه جيداً وقد أكّد لنا القوم أن هذا الماء يظل خلال حرارة الصيف بارداً كالثلج والاعتقاد سائد أن النبع يقع في الجبال البعيدة إلا أنني أعتقد أن الماء يجمع بالطريقة نفسها التي تشاهد في سهل دمشق أي بواسطة قناة تحفر تحت سطح الأرض وإلى الجنوب من الهيت وعلى مسافة عشرة أميال منها تنتصب قمة مخروطية فوق التلال المجاورة لها فتكون منظراً بارزاً في تلك المنطقة وتدعى هذه القمة تل أبوطميس وهي من أعلى قمم جبل حوران.

لقد عمل مضيفنا اللطيف كل ما في وسعه ليقنعنا بالبقاء وتمضية النهار عنده إلا أنه عندما رأى أننا مصممون على متابعة سفرنا أرسل معنا ابن أخيه وفارساً آخر ليكونا معنا حارسين ودليلين في حين أعلمنا أنه سيركب إلى شهبا لإعلام أخيه فارس عن نيتنا في زيارته فطلبنا من خادمينا أن يرافقاه بينما رغبنا نحن في زيارة خرائب البثينة وشقا.

في الساعة الحادية عشر وعشر دقائق (11:10) ركبنا من باحة الدار بين "سلامات" الفلاحين المتجمهرين وسرنا في الحقول باتجاه شمالي شرقي نحو البثينة إن الأرض هنا لا تنازعها أرض في الخصب وقمحها أحسن قمح في سورية، فالحقول تبدو الآن خضراء تغطيها الحبوب النامية التي كانت ترتفع عن الأرض بروعة وبهجة قلّما شوهدا في هذه الأرض وقد شاهدتُ في عدة أمكنة طريقاً قديماً لا تزال أقسام كبيرة منه مرصوفة وبقايا جدران على جانبيها كان النهار مشرقاً وبارداً والأرض المغطاة بالعشب ناعمة وثابتة وخيولنا نشيطة وروحنا المعنوية عالية، كان رفيقانا الجديدان متشوقين لعرض معدن حصانيهما ومهارتهما في الفروسية وهكذا أرخينا العنان لخيولنا فانطلقت في المنحدرات فما عتمت أن وصلت البثينة فالمسافة بين الهيت والبثينة حوالي نصف ساعة إلا أننا لم نحتج نصف هذا الوقت في الوصول إليها.

تقع البثينة في السفح الشمالي من جبل حوران ومنها يمتد النظر إلى مسافة بعيدة إلى الشمال الغربي وعلى مسافة ساعة

عنها تنخفض الأرض فتتصل بالسهل الذي يصل إلى بحيرات دمشق وعلى مسافة نصف ساعة إلى الشمال الغربي تنتصب تلتان مخروطيتان وتقوم إلى جانبهما قريتان متفرقتان ووراءهما إلى اليمين قليلاً يرتفع تل الخالدية المكلل بالخرائب وقد حدّثنا الدروز عن هذه الخرائب قائلين أنها كبيرة وجميلة فأسفنا لعدم تمكننا من زيارتها وقد عرفنا الآن أننا نحتاج إلى شهر كامل لزيارة البقايا الأثرية الشيّقة المنثورة على سفوح هذه التلال وحدها، إن قرى كبيرة كثيرة تنتصب على المنحدرات الشرقية والسهل المنبطح على أقدامها وهي قفراء تخرّبت بعض أجزائها وانتشرت فيها الكتابات القديمة وإن الوقت لم يسمح لنا بزيارة تلك الأقسام ولنا رجاء أن يأتي رحّالة مغامر فيترك السبل المطروقة ويدخل إلى صميم هذه المناطق المجهولة، فقد كنت أعود وبي حسرة كلّما وصلنا إلى الحدود التي رسمناها لرحلتنا فقد كنت أرى وراء هذه الحدود خرائب تثير الاهتمام ومدناً وقرى لم تكشف بعد، فقد رأيت من البثينة ثلاث قرى خربة في السهل بالإضافة إلى تلك التي ذكرناها وهكذا كان نظرنا يقع على ست قرى خربة في تلك الجهة.

ليست البثينة كبيرة قدر الهيت إلا أن أبنيتها من طراز أرفع وحالة أبنيتها أحسن وعندما وصلناها لاحظنا النوافذ الدائرية التي تنفتح على قناة أرضية تنحدر إلى البلدة من المرتفعات الجبلية فسرنا معها حول سور القرية حتى وصلنا إلى الجهة الشمالية الشرقية فنزلنا وعهدنا بخيولنا إلى بعض الرفاق وتابعنا سيرنا لمشاهدة أبنية القرية، لم يصل إلى علمي أن رحالة قبلي قد وصل إلى هذا المكان أو أشار إلى هذه البلدة أو أنه حاول التثبت من كونها بلاد (بثينة) وعندما دخلنا البلدة سرنا في شارع مرصوف يوصل إلى بناية واسعة يرتفع فيها برج مربع ارتفاعه حوالي 40 قدماً وموقعه بقرب المدخل، كانت البوابة مغلقة بمصراعين حجريين غير أننا أزحناهما بسهولة ودخلنا باحة مفروشة بالحجارة تغطي قسماً منها الخرائب وحول هذه الباحة تقوم الغرف تنفتح كل واحدة منها على الباحة بباب حجري.

بعد أن نقلت كتابة يونانية تسلقت أكواماً من الحجارة وبعض الجدران المتصدعة حتى وصلت إلى سطح البناء

المنبسط وهو في عدة أمكنة لا يزال متيناً كعهده الأول وبعد أن أنهيت ملاحظاتي عدت أفتش عن رفاقي متعرجاً في سيري بين أزقة ضيقة ومتسلقاً البيوت نصف الخربة فأتيحت لي بذلك فرصة التدقيق في الأبنية وتخطيط شوارع القرية، ليس في هذه البلدة أي أبنية عامة ولكن هناك دلائل على الغنى والرخاء في المنازل الخاصة ويظهر أن غرض هؤلاء المهندسين كان ينحصر في أمرين المتانة والبساطة وقد نجحوا في ذلك نجاحاً تاماً فلا تزال هذه الأبنية قائمة رغم أن أرضهم قد هجرت زمناً طويلاً ومدنهم قد أقفرت ورغم أن اسم هؤلاء السكان وتاريخهم قد نسيا منذ أجيال....

ليس هناك أدنى شك في أن البثينة قد حافظت على اسم المقاطعة الرومانية بثينا ومملكة باشان السورية وصحيح أن هذين الاسمين قد أطلقا على عدّة مقاطعات، غير أنه صحيح أيضاً أنه كان هناك مدينة هامة أطلق عليها الاسم نفسه وفي الوقت الحاضر يوجد مقاطعة تدعى أرض البثينة وهي تشمل كل جبل حوران وقسماً من السهل في الجهتين الشمالية

والشرقية، إن الأهالي يسمّون أرض هذه المنطقة أرض البثينة أو جبل الدروز بينما الغرباء وحدهم يطلقون عليه اسم جبل حوران، إن المناطق الوسطى والشمالية من سلسلة هذه الجبال رائعة: قمم مخروطية، منحدرات رهيبة، وديان عميقة، أخاديد متعرجة، كلها مغطاة بأحراج السنديان دائمة الخضرة غير أن المنحدرات الشمالية تختلف في منظرها، فإن سفوحها وتلالها عارية، إلا أن غنى تربيتها العظيم يعوض عن نقائصها الأخرى ابتعدنا عن هذه البقايا المثيرة للاهتمام وانطلقنا بخيولنا نحو الشرق – باتجاه تل عزران وكانت خيولنا تغرق حتى العرقوب في وحول الحقول المفلوحة منذ عهد قريب فما أن مضى على سيرنا بضع دقائق حتى وصلنا إلى فسحة من الأرض مغطاة بالأعشاب كان منظرها مشوقاً لرفاقنا الدروز ليغيروا من سيرهم الهادئ المتزن، كان الشيخ الشاب سعيد يحمل رمحاً ورفيقه حسن يحمل بندقية لكز الأخير حصانه بالركاب الثقيل فانطلق في السهل وصار يلتفت من سرجه ويلوّح ببندقيته كأنه يتحدى الذي خلفه اتّقدت عين سعيد وهو يكبح جماح حصانه والتفت

إلينا بتواضع كأنه يقول لنا لا مانع لديه من الطراد لولا احترامه لرفقتنا عندئذ أرخى نقولا عنان حصانه وفي برهة وجيزة كان مطبقاً على حسن وعندئذ تبعهم سعيد ثم اشترك مستر كويل في هذه الرياضة وبدا المشهد شائقاً فقد لاحظت الآن أن آلات الفلاحة قد توقفت جميعاً في الحقول وراح الدروز الذين يمسكون بها ينظرون باهتمام عظيم إلى ألعاب رفاقنا.

إن براعة الدروز في تطويع خيولهم واستعمال الأسلحة مشهورة كشهرة شجاعتهم في ساحات القتال، كبح حسن جماح حصانه بينما كان نقولا يقترب منه ومع ذلك فقد كان يحثه على مضاعفة سرعته غير أنه انتهز هذه الفرصة وانحرف إلى اليمين ثم عاد إلى وضعه الأول حالما مرّ الفارس الآخر واستدار فجأة إلى جانب خصمه وعندئذ كان لحسن مركز يمنحه التملك الكامل من خصمه بحد السيف وليس هناك أي شيء يستطيع أن يسبق سرعة الحصان في تلك الحركات والدقة الرائعة تخييب الضربة عمداً ويبدو أن الخيول راحت تشارك أصحابها روح هذه الرياضة فكانت تطيع كل حركة من القدمين

أو العنان أو السلاح حينما تحوم وحينما تنطلق بأقصى سرعتها ثم تتوقف فجأة وتجمد في أمكنتها وصار حصاني العربي الذي كان قد بدأ يتحمّس متمرّداً فراح يقف على قدميه الخلفيتين ويتقهقر ويعض اللجام حتى تدفق الدم من فمه وعندما تعبت من كبح جماحه أرخيت العنان وأطلقته حراً فحملني حالاً إلى حلبة الطراد.

المسافة بين البثينة وشقا ما يقرب من أربعة أميال ويوجد في أمكنة كثيرة بقايا طريق قديم مرصوف وشقا مبنية على سفح نجد يشرف على منحدرات الهيت والبثينة ويمتد شرقاً حتى الجنينة ومن جهتها الغربية ترتفع سلسلة من الهضاب العريضة فتفصلها عن وادي نمرة وليس لهذا النجد مثيل في خصب ترتبته وجودة حبوبه.

وصلنا إلى برج مربع على بعد بضع ياردات من شقا وكان هذا البرج حسن البنيان يشبه في شكله ومظهره الأبراج التي رأيناها في الهيت، كان ضلع هذا البرج عشرين قدماً وارتفاعه ثلاثين، بابه من الجهة الشرقية وفوقه نافذة صغيرة. حاولت

الدخول إليه غير أن الرائحة الكريهة التي كانت تنبعث منه منعتني من ذلك وعندما تطلعت إلى داخله وجدته مملوءاً على عمق أقدام بالعظام البشرية، فسألت متقززاً عن هذا الأمر لأنني كنت أعلم جيداً أن مثل هذه الطريقة في دفن الموتى غير متبعة في سورية.

فأجاب سعيد بأن هذه بقايا بعض جنود إبراهيم باشا الذين قضوا على حدود اللجاة خلال الحرب بعضهم بالحسام وجلّهم من العياء والجوع والعطش لقد جمعت هذه العظام هنا لتكون شاهداً على قوة ذلك الحصن الطبيعي وعلى شدّة بأس الدروز.....

عندما دخلت شقا تسلّقت برجاً مربعاً لإلقاء نظرة عامة على المدينة والمنطقة المحيطة بها، فقدّرت أن محيط الخرائب يبلغ حوالي الميلين ولم يبقَ من الأبنية في حالة جيدة إلا القليل غير أنه يبدو على بعضها معالم الذوق الرفيع ويستطيع المرء أن يخطط طرقها القديمة رغم الخرائب المتراكمة فوقها فهي ضيقة ولكنها أكثر استقامة وأحسن تنظيماً من شوارع البثينة والهيت،

وقد رأيت أربعة أبراج مربعة أخرى بالإضافة إلى البرج الذي تحدثنا عنه إلا أنها من طراز آخر ومن عهد أقدم، اتجهت شرقاً متنقلاً فوق أكوام هائلة من الحجارة فما عتمت أن وصلت إلى بناء واسع فقط.

لقد سبق لهذا البناء أن كان في بعض عهوده كنيسة مقسّماً إلى صحن وجناحين بواسطة ركائز تحمل بدورها قناطر نصف دائرية ويبلغ طول هذا البناء 72 قدماً وعرضه 52 وعلوّه 15، خرجتُ من الباب أدهشني ما رأيته من نقاء تزييناته الخارجية وجماله، وكان التباين بين المنظر الداخلي والخارجي لهذا البناء كبيراً إلى درجة جعلتني أستنتج أنه سبق لهذا البناء أن كان هيكلاً ثمّ حوّل إلى معبد مسيحي....

تابعتُ سيري فوق البيوت المتهدمة والشوارع الضيقة نحو القسم الآخر من البلدة الذي لم يكن مأهولاً، كانت الحجارة قد رفعت من قلب الشوارع لتسمح بمرور الحيوانات وكذلك الحال في بعض الباحات التي كانت تغطيها الشجيرات والأعشاب فقد فتحت فيها بعض الممرات أيضاً.

إن السكان الحاليين (الدروز) قد استقروا في الغرف ذات السقوف والأبواب السليمة وهذه الأبنية أكثر انخفاضاً وأعرق في القدم من الأبنية المشيدة في العهد اليوناني ولا يزال عدد البيوت الصالحة للسكن في هذه البلدة أكثر بكثير من عدد السكان الذين جاؤوا ليستقروا فيها...

وقد وجدنا فوق قطعة حجر كبيرة كتابة ظهر فيها أن إحدى هذه الأبنية قد خصّ للقديسين والشهداء جورج وسرجيوس شيّدها «طيبييوس الأسقف في سنة 263» (369 ب.م) وقد عرفنا من هذه الكتابة أن هذه المدينة كانت في العصور القديمة كرسي أسقفية ومن ذلك فإن اسمها لم يظهر في اللوائح الكهونية التي رأيتها. وقد لا يكون أدنى شك في أن بين الخرائب بقايا كنيسة التي ذكرها بطليموس والتي حدد موقعها في القسم الشرقي من مقاطعة بثينا.

في الساعة الثامنة والدقيقة الأربعين ركبنا وسرنا فوق مرتفع وعر حتى وصلنا إلى السهل الخصب وسرنا فيه خبباً نحو شهبا التي بدت علينا فوق قمة مرتفع وعر، كان طريقنا خلال

الحقول المفلوحة حديثاً حتى وصلنا إلى الطريق العام وهنا رأينا أيضاً بقايا طريق قديم وبعد أن سرنا ميلين تقريباً شاهدنا على جنبات الجبال وعلى مسافة ساعتين خربة تشبه القصر ولم يتذكر رفاقنا اسمها إلا أنهم أشاروا إلى قمة مخروطية أدنى منها وعليها قرية طفحة وأعلمونا أن في الوادي وعلى بعد نصف ساعة من طفحة إلى الشرق تقع قرية نمرة حيث يبتدئ وادٍ رهيب إلى الشرق منها ويسير هذا الوادي إلى طفحة ثم إلى شهبا وقد استطعنا أن نميّز مجرى هذا الوادي خلف المرتفعات الواقعة إلى يسارنا وهذا الوادي يفصل سفوح الهيت والجنينة والبثينة عن الجبال الواقعة في الجنوب بينما ترتفع سلسلة الجبال الرئيسية وعرة وسريعة الانحدار في الضفة الجنوبية من الوادي فتبدو المناظر هناك أروع وأجمل إذ أن سفوح الجبال تكتسي بالسنديان الدائم الخضرة.

وفي منتصف الطريق بين شقا وشهبا مررنا في قرية صغيرة مقفرة اسمها دير الشعير وبعد أن تركناها قطعنا وادياً ضحلاً وبعد أن اجتزنا منبسطاً من التربة الجيدة وصلنا إلى ضفة

الوادي الكبير وهذا الوادي يدعى من مصبه إلى هذا المكان وادي نمرة ولكنه يدعى على طول مجراه من حدود اللجاة حتى براق ومن هناك حتى سهول الهيجانة وادي اللوى.

بعد أن اجتزنا الوادي وصلنا إلى شهبا الواقعة على الضفة الجنوبية والمسافة بين البلدتين ثمانية أميال ونصف فصعدنا فوق السور الخرب بالقرب من بوابة رومانية وسرنا فوق شارع قديم مرصوف إلى مقرّ الشيخ وقد وجدنا هناك عدداً كبيراً من الناس ولكن أول من مدّ يد الترحيب إلينا كان مضيفنا اللطيف السابق الشيخ أسعد فقدّمنا إلى أخيه فارس الذي اقترب لاستقبالنا وأدخلنا إلى قاعة لقينا فيها الراحة والوجوه الباسمة والترحيب القلبي.

إن الشيخ فارس يشبه أخاه شبهاً عظيماً في الحركات والملامح والوجه إلا أن في لهجته شيئاً من الجفاف، إنه الآن أقوى زعيم في حوران إذ أن في إمكانه أن يجمع أكبر عدد من الأتباع في ساحة القتال وقد ساهم مساهمة فعالة في الحرب الأخيرة.

وبعد القهوة علمت أن الدروز لا يدخنون، وقد انسحب أكثر الغرباء لعلمهم أن الغرفة التي نشغلها تخصّ الحريم وأنها هيئت خصيصاً لنا، وتحوّل الحديث الآن إلى موضوع الحرب وسرعان ما استولى التفكير على هؤلاء الشيوخ بأن لزيارتنا هذه غرضاً سياسياً وقد تهربت من الأسئلة المباشرة التي كانت تلقى علي عن نوايا الدولة التي سبق لي أن أخذت بعض المعلومات منها قبل تركي دمشق، وقد لوحت لهم برأي وهو أن السلطان قد لا يصرّ على التجنيد إلا أنه قد يقبل بشيء يعوض عنه، فأبدوا رغبتهم في قبول أي تعويض معقول عن ذلك وحينئذ راحوا يبسطون قضيتهم بالتفصيل وبلهجة حازمة ومع ذلك عاطفية وقد طلبوا رأيي في ما إذا كانت الدولة على حق في طلب الجنود منهم فقال فارس نحن هنا على أطراف الصحراء وعلينا أن نتحمل أعباء قتال البدو باستمرار لحماية نسائنا وأولادنا وأملاكنا ليس هناك أي جنود نظامية بالقرب منا وليس هناك أي حامية مقيمة في القرى أو القصور الواقعة على أطراف

البلاد لتكبح جماح القبائل الضارية في الصحراء، إننا مرغمون على مرافقة محصول حبوبنا بالقوة المسلحة لنبيعه في المدينة فإذا أخذوا منا أولادنا وأرسلوهم إلى بلاد أخرى كيف نتمكن من الحفاظ على عيالنا وأموالنا وقالوا أيضاً أنهم لا يشعرون بتعلقهم بالأرض التي يستعملونها وبأنهم ليسوا إلا عبيدا يشتغلون في أرض تخص غيرهم وبأنهم يدفعون إلى – أسيادهم – ما يحصلون عليه بعرق الجبين بينما أولئك لا يعملون شيئاً للدفاع عنهم أو لتشجيعهم في أعمالهم.

وقالوا أن حالتنا لن تكون أسوأ مما هي عليه الآن فإنه من الواجب التساهل معنا لأن أحداً لا يستطيع أن يعيش هنا غيرنا دع السلطان يمنحنا حماية جنوده دعه يدفع عنا غزوات البدو دعه يمنحنا تعلقاً واهتماماً في الأرض التي نستعملها ليكون لنا مكان نستطيع أن نسميه وطناً وليكون بمقدرتنا زراعة الكروم وحقول الزيتون والجنائن مثل إخواننا في لبنان وعندئذ نعمل ما يعمله غيرنا، كنت أعلم أن هذا ليس السبب الحقيقي الذي

من أجله يرفض الدروز التجنيد فإن السبب يعود إلى حبهم للحرية وتخوفهم من التضييق عليهم والابتعاد عن إخوانهم ولكن من يستطيع أن يرد على تلك الحجج التي يقدمونها، من يستطيع أن يقول لهم:

((اذهبوا وذودوا بدماء أبنائكم عن عرش حاكمكم واتركوا بيوتكم عرضة للنهب وإخوانكم عرضة للقتل بيد السلابين، بينما لا يبدي حاكمكم أي رغبة في المحافظة عليكم)) إنه لأمر يناقض الطبيعة البشرية أن ندافع عن شي ليس لنا منه فائدة وأن نترك بيوتنا عرضة للغزاة بينما نخوض المعارك للدفاع عن الآخرين إن هذه القاعدة تطبق بكل ما فيها من قوة على دروز حوران والسياسة السليمة التي يجب على الدولة أن تتبعها هي في أن تنظم منهم قوى غير نظامية لحراسة الحدود وأن تقبل هذا بدلاً عن الخدمة في الجيش إلا أن الأتراك بما عهد فيهم من تهور وقصر نظر قد أدخلوا نفسهم في مأزق يحاولون عبثاً أن يخرجوا منه بشرف.

لقد أرسلوا حملة لإرغام الدروز على الخضوع للتجنيد وكانت تلك الحملة سيئة المعدات وتحت قيادة أسوأ فأرغمت على الانسحاب مخذولة وها هم الآن يوسطون الأجانب للوصول إلى اتفاق متبادل بينهم وبين الدروز وهم أي العثمانيون سيضطرون في النهاية إلى التنازل عن كل ما كانوا يطلبونه في البدء وستكون بنود الاتفاق في غير صالح الدولة عندما يملي الغالبون شروطهم إملاء أنه يستحيل على الجيش التركي وهو على حالته الراهنة في سورية أن يقهر حوران ولو فرضنا أنه استطاع أن يقطع المنطقة فمن المستحيل على الجيش أن يسيطر عليها فالقسم الأكبر من البلاد غير صالح لسير الخيالة المدفعية بينما هي تقدم كل التسهيلات لحروب العصابات ولا تسمح مطلقاً للفرق العسكرية أن تعمل على نطاق واسع فالجنود خلال الشتاء لا يستطيعون أن يعيشوا فيها دون تحصينات وحواجز وفي الصيف يضايقهم الحر وقلة المياه فإذا أرد إخضاع حوران والسيطرة عليه كان من الضروري إقامة عدة حاميات قوية في حصون منيعة ذات مركز حساس وشق

طرق عسكرية في أوعر المناطق فإذا تم ذلك تحولت المنطقة حالاً إلى بستان سورية ومخزن حبوبها.

أوقفت الضجة والحركة والسرعة الصادرتان عن تهيئة الطعام الجدل حول المشاكل السياسية وإذا كان الإكرام يقاس بتعدد ألوان الأطعمة فإننا بلا شك قد نلنا حظاً وافراً منه، لقد ذبح من أجلنا ثلاثة خراف أحدها مقلي بكامله وكان يزيّن وسط المائدة يحف به قطع من الخروفين الآخرين وركام ضخمة من الرز صحون صغيرة من النواشف وقبل الشيخ أسعد دعوتنا فراح يشاركنا في الطعام وقد بدا السرور على وجهه لهذه المائدة الفخمة. فوج بعد فوج من الفلاحين والغرباء والمرابعين تتابعوا على مائدة المضيف، وقد رأينا بينهم صاحبنا البدوي التدمري وقد بدا هنا بشكل جديد.

لقد كان قادماً ليشتري حبوباً إلا أن ماله (7000) قرش قد سلب منه في الطريق ولم يعد يعرف ما يفعله، كان همه أن

يحصل على القمح وكان الشيخ يرغب أن يساعده شفقة عليه، غير أن الشيخ الدرزي الذكي كان ينظر إلى قصة المال المفقود كقصة مختلقة مع ذلك فإنه لم يصرح للبدوي بذلك لأن في هذا مخالفة لأصول الضيافة إلاّ أنه اقترح أن يعطي قمحا مقابل قسم من جمال البدوي ولم تنته المساومة غير أن المال المفقود ظهر في صباح اليوم الثاني، لا أدري كيف!

3 - شباط

سرنا فوق أكوام من الحجارة المنحوتة فوصلنا إلى بناية عظيمة غريبة الشكل فكان علينا للوصول إليها أن ننزل إلى باحة بيت بدائي ينخفض عن سطح الأرض حوالي خمسة عشر قدما وكانت الأرض مغمورة بالخرائب على عمق كبير فوجدناها أرضاً مرصوفةً من عهد قديم وغرفةً واسعةً بابها من الحجر وسقفها سليم قد شيّد فوق هذه الباحة بعض الأبنية الرومانية واليونانية وارتفع فوق رؤوسنا جدار مبني بشكل منحني.

اجتزنا أرضاً مرتفعة فوصلنا فجأة إلى أهم ما في المدينة من أبنية، مسرح في حالة جيدة سليمة جدرانه الخارجية تقريباً كاملة وهي تنتهي بنصف دائرة وتمتد جوانبه بخطوط متوازية في مقدمته ثلاث مداخل خارجية رئيسية ومن هذه المداخل الرئيسية تتفتح ثلاثة أبواب على الحلبة والحلبة طولها خمسة عشر يردا وعمقها مثل ذلك حولها سبعة صفوف من المقاعد

ثم ممر عرضه سبعة أقدام وطوله (54) يرداً من الجدار إلى الجدار ووراء ذلك جدار ارتفاعه ستة أقدام فوق سبعة صفوف من المقاعد الحجرية الطويلة.

تتفرع أربعة دهاليز مسقوفة بالقناطر وتوصل إلى الخارج مارة تحت المقاعد الخارجية الطويلة فتصل بممر ضيق يدور حول نصف دائرة الملعب فتنفتح منه تسعة أبواب إلى الخارج، وبينما كنت عائداً إلى بيت الشيخ في ممر ضيق بين أكوام الخرائب لاحظت فوق حجر صغير من برج صغير مربع قطعة من النحت الجيد وهي تمثل أحد الآلهة جالساً على عرشه وأمامه مذبح يقابله كاهن واقف وهو يقدم ثوراً قرباناً في حين يتقدم من الخلف رجل يحمل تاجاً مضفراً يتبعه آخر يقود حيواناً تقدمه الآلهة.

وفي أثناء الغداء اتفقنا مع مضيفنا على اصطحاب أحد الدروز كدليل لنا برحلتنا بجبل حوران وليعود معنا إذا لزم الأمر إلى دمشق، تابعنا سيرنا في الشارع باتجاه الشرق فوصلنا إلى

بقايا معبد في مدخله ستة أعمدة لم يبق منها إلا خمسة واقفة، وفيها حاملات للتماثيل شبيهةً بتلك الموجودة في الرواق الكبير في تدمر هندستها كورنيثية، والزخارف (التفاصيل) صنعت بإتقان وذوق وهذا المعبد يتجه صوب الجنوب..... وعلى بعد قليل منها ثلاثة مكعبات من البناء المتين علو كل واحدة عشرة أقدام وضلعه سبعة عشر كان عددها في الأصل أربعة وهي تقوم جميعا في وسط المدينة تمر بينها أربعة شوارع مستقيمة عرض الواحد خمسة وعشرون قدماً وتتجه نحو بوابات المدينة الأربع الكبرى بلاط الشوارع لا يزال في أمكنة عديدة في حالة سليمة وهو مثال جميل من عمل الرومان وقفت على سطح واحد من هذه المكعبات فأشرفت على منظر شامل للأقسام الشمالية والجنوبية للمدينة ولا أذكر أنه سبق لي أن شاهدت مثل هذا الاتساع المشوش من الخرائب فكأن شيطاناً قد انقض عليها فقوض كل ما فيها من بناء ونتيجةً لكون المدينة مشيدة بكاملها من الحجارة كانت الأرض مغطاة تماماً بأكوام متراكمة تسير بينها خطوط الشوارع كالأخاديد سرنا جنوباً إلى حمام

كبير جدرانه ذات متانة عظيمة وتحتوي هذه الجدران على أنابيب (قساطل) يبدو أنها كانت مخصصة لتحمل الماء من الخزان الواقع في الطابق الأعلى وكانت الغرف فسيحة سقفها يرتفع عالياً على قناطر ومن الجهة الجنوبية يتصل بها بقايا قناة رومانية تمر فوق قناطر (أقواس) يقرب ارتفاعها من 40 قدماً.

وعندما صعدت إلى سطح الحمام بطريق سلم حجري صار بإمكاني أن أشاهد وأرسم ركائز القناة بين الخرائب في الزاوية الجنوبية الشرقية من المدينة، وامتدادها إلى مسافات بعيدة بمحاذاة الضفة الجنوبية لوادي نمرة.

ويقال أن مصدر هذه القناة من النبع الواقع شرقي نمرة ولذا وجب أن يكون طولها أكثر من عشرة أميال أتيح لي من هذا المكان المشرف أن آخذ فكرة عامة عن شكل المدينة القديمة واتساعها أو على الأقل عن القسم المحصور بين أسوارها فرسمت لهذا المنظر مخططاً تقريبياً، فالمدينة مربعة تقريباً إلا أن ضلعها الغربي يختلف قليلا عن الباقي لوجود واد عميق

هناك، ويقول بركهاردت أن في المدينة ثماني بوابات إلا أنني لم أر غير خمس، اثنتين من الجنوب والباقي من الجهات الأخرى ويبدو أن المدينة قد بنيت على نظام هندسي دقيق إذ أن الشوارع الرئيسية تتقاطع بزوايا قائمة غير أن الأرض التي بنيت عليها شهبا صخرية غير متوازية ترتفع تدريجياً من ضفة الوادي من الجهة الشرقية حتى بيت الشيخ الذي يقوم فوق ظهر ينحدر إلى ضفة الوادي الثاني وهو ضحل ولكنه شديد الوعورة وقد بنيت أسوار البلدة بمحاذاته ووراء هذا الوادي يرتفع فجأةً تلان شامخان هما تل الغرارة وتل شهبا، ورغبنا في تسلق تل شهبا.

لم يكن المرتقى طويلاً غير أنّه كان صعباً بسبب الطبقة العميقة من الحجارة الصغيرة السوداء التي تغطيه وتختلط بهذه الطبقة مقذوفات الحمم البركانية والأحجار الهشة ولقد لفت انتباهنا هذه المظاهر الغريبة فأحسسنا بأنه يجب أن نكون بالقرب من فوهة بركان خامد وعند وصولنا إلى القمة وجدنا أننا نقف على حافة هذه الفوهة وقد رأينا إلى الجهة الغربية من التل

جورة واسعة عميقة تشبه الطاسة تحيط فيها صخور تشكل شبه رفراف وكان يغطي داخل هذه الفوهة وخارجها جميعاً المقذوفات البركانية.

إلى الجنوب الشرقي وعلى بعد بضع مئات من اليردات يرتفع تل الغرارة، وقد أطلق عليه هذا الاسم لأنه يشبه كومة القمح ويمتد خط من التلال نحو الشمال تنتهي بتل شيحان الذي يرتفع فوقه مقام أحد الأولياء ووراء هذا وإلى الجهة الغربية يمتد اللجاة وهو بحر من الصخور لا يشوه انبساطه غير قمتين صغيرتين وحيدتين هما تل عمار وصميد وفي الجنوب الشرقي يرتفع جبل حوران بسفح قليل الانحدار إلا أنه وعر وكثير الأخاديد وقد سبق للحجارة المنتشرة فوق سفحه أن جمعت على شكل رجوم وبنيت منها جدران الحقول المتدرجة وهناك دليل قاطع على أن كل هذه السفوح كانت مغطاة بكروم العنب.

قليلة هي الآثار الموغلة في القدم في هذه المدينة بالنسبة للقرى أو المدن الأخرى في جبل حوران السقوف والأبواب

الحجرية موجودة في شهبا ولكنها عميقة في باحات الدور المغطاة غالبا بأنقاض الأبنية الأحدث عهداً ولكنها ليست كثيرة في عددها كما هي الحال في الهيت والبثينة وشقا ولم أشاهد أي باب حجري في أي بيت أو معبد من العهد الروماني والواقع أن هذه المدينة تبدو كأنما أعيد بناؤها بيد الرومان حالما سقطت هذا المقاطعة تحت سلطتهم.

إنه من المستغرب أن يكون لدينا أي معلومات تاريخية عن مدينة في مثل هذا الاتساع بما فيها من أبنية كلفت غالياً وأغرقت في الذوق والمهارة الهندسية والفنية فهي إحدى المدن التي وصلت إلينا دون اسم أو تاريخ فإذا أتيح تنقيب جدي بين خرائبها فقد يبرز إلى النور اسمها في قطعة من الكتابات القديمة وأننا نأمل أن يقيض لها رحالة جريء فيأخذ على عاتقه التدقيق العلمي المفصل في مدن باشان المقفرة.

اشتهرت شهبا في تاريخ هذه المنطقة وفي العهد الإسلامي بأنها كانت في فترة من الزمن مقر أمارة شهبا ومنها أخذت اسمها أن هذه الأسرة التي لا تزال منذ سنين من أقوى الزعامات

في سورية يرتبط أصلها بقبيلة قريش العربية العريقة ولهذا فإن أفرادها يقولون بأن بينهم وبين الرسول صلة رحم.....

وبعد أن قمنا بالترتيبات اللازمة للسفر، خرجنا من شهبا يرافقنا بغّال جديد اسمه يوسف وهو مسيحي من لبنان وركب خدمنا فوق صهوة بعض البغال القوية التي كانت قد غنمها الشيخ فارس خلال الحرب.

إن التربة بين الصخور عميقة وغنيّة والسفوح تبدو ملائمة جداً للعنب والزيتون ومع ذلك فليس هناك الآن أي شجرة من غرس الإنسان.

وبعد أن سرنا أربعين دقيقة وصلنا إلى واد صغير وعر قليل العمق فبانت على يسارنا قرية مردك القديمة وإلى الشمال منها مزار ذو قبة بيضاء يرتفع فوق تلة صغيرة وقد لفت انتباهنا جمع من النساء كانت مناديلهن البيضاء الناصعة تتدلى بشكل لطيف من فوق الطنطور العالي وكان هؤلاء النسوة عائدات نحو البلدة بعد أن كنّ متجمعات حول صف من القبور الحديثة

وهن يندبن بلحن حزين غريب وعندما سألت عن معنى هذا الموكب الغريب أجابني يوسف بأن أحد عشر رجلاً من أهالي مردك قد قتلوا أثناء الحرب وأن نساء شهبا جئن لمشاركة أرامل القتلى أحزانهن، لقد كان في هذا المشهد شيئاً عميقاً: البساطة في سرد يوسف، والقرية النصف الخربة، فوحشة الوادي الصغير، والقبور التي لما يجف ترابها بعد الصف الطويل من النساء النائحات اللواتي يتعرجن بين الصفوف نحو بيوتهن المقفرة كل ذلك أثر تأثيراً عميقاً في نفسي.

بعد أن سرنا مدة ساعة وخمس وثلاثين دقيقة وصلنا إلى قرية سليم وهي تقع على تلة بالقرب من السهل وأسرعت بتسلق أول بناية صادفتنا فإذا هي معبد جميل يشرف على سهل حوران وقسم من الجولان والجيدور حتى جبل الشيخ وإلى شماله الشرقي جبل شيحان بشكله المخروطي ومن الشرق سفوح الجبال الوعرة ينحدر منها واد عميق يمر بسليم بينما تغطي المرتفعات أحراج السنديان.

إن محيط سليم يبلغ ميلاً ونصف الميل والبلدة تحتوي على بقايا أبنية كبيرة تحول أكثرها إلى أكوام من الخرائب فالمعبد الذي وقفت على سطحه كان على غاية من الجمال وهو يبعد عن البلدة قليلا نحو الشمال ولهذا المعبد باب صغير مؤلف من عامودين تعلوهما عتبة ويحمل حاملة للتماثيل أصبحت كومة من الخراب ويبدو أن داخل البناء كان مزيناً بالنقوش على نطاق واسع إذ أنه مملوء بحجارة ضخمة تغطيها النقوش النافرة تمثل زهوراً وأثماراً وأغصان عذب وقد حول هذا البناء في العصور المسيحية إلى كنيسة وقد اكتشفنا فيها حجراً ضخماً عليه كتابة بأحرف صغيرة أكثرها ممحو وكان السطر الأخير منها هاماً إذ جاء فيه. انياس النيابونيتانق قد شيد هذا المعبد إن انياس هو أحد السكان وإن الاسم اليوناني القديم للمدينة كان نيابوليس.

كان في الإيالة العربية مدينة ذات مركز ديني بهذا الاسم وكان يرد اسمها مقروناً غالباً باسم كاناثا وديونيزيا وغيرها من هذه المقاطعة قد جرت العادة في عدة أنحاء من سورية أن يعود

الاسم القديم إلى الظهور ويهمل الاسم الإغريقي والآن تجد بدلاً من أسماء هليوبوليس وقيصرية ونيابوليس أسماء بعلبك وسليم.

ثم زرنا بقايا حمامات واسعة وبقربها أطلال معبد كان مشيداً فوق أرض مرتفعة وبعد أن أمضينا بعض الوقت نقفز فوق أكوام الخرائب وصلنا إلى بيت الشيخ فاستقبلنا بأدب رغم تحفظه الظاهر بسبب من أنه يجهل من نحن وما هو قصدنا وألح علينا في دخول بيته وشرب القهوة وقال بأنه قد أرسل أخاه ليدعونا فاعتذرنا منه بأننا لا نستطيع التوقف ونحن نتعجل الوصول إلى قنوات وما كدنا نتخلص من الشيخ حتى التقينا بأخيه وراح يلح علينا بدوره لقبول دعوته ولاسيّما بعد أن وصلت إليه أخبار مرضية عنا وقد حاول كل ما في جهده ليبقينا عنده وبينما كان نقولا يجيبه ويثني على كرمه ويبدي أسفه العميق واعتذاراته حسب التقاليد العربية كنا نقوم بتفقد بعض الكهوف الكبيرة الواقعة أمام الهيكل إن عمقها ثلاثون قدماً وسقفها يرتفع فوق قناطر وهذه القناطر تستند أحياناً على صخر طبيعي وأحياناً على حجارة منحوتة نحتاً بدائياً ومن المرجح أن تكون

صهاريج للمياه ولكن الأرجح أن تكون مخازن للحبوب وقد شاهدنا مثلها ولكن أصغر منها في الهيت والبثينة، والكتّاب القدماء الذين يصفون هذه المنطقة يتحدثون جميعاً عن الكهوف التي تكثر فيها.

وفي الساعة الثانية والدقيقة الخامسة والعشرين ركبنا وسرنا بين سلامات (تحيات) جماعة كبيرة من الدروز وكان محمود دليلنا درزي قوي البنية جدياً في مظهره ولم يكن لباسه اللباس الذي يرتديه عادة أبناء جلدته فكان يضع على رأسه الكوفية العربية والعقال بدلاً من العمامة البيضاء وكان سلاحه السيف والطبنجة دون رمح أو بارودة وكان يركب حصاناً أشهب رائعاً مما يركبه الضباط وكان يبدو عليه أنه رجل سكوت عبوس لا يميل كثيرا إلى المناقشة والحديث غير أنه كان يجيب على الأسئلة الموجهة إليه بدقة ولكن بإيجاز وقد تأكدت حالاً من أنني أستطيع الاعتماد على صحة أجوبته عندما كان يجيب دون تردد معلناً عدم معرفته بالقرى والأماكن التي لم يزرها هو بنفسه، كان طريقنا يصعد في سفح قليل الانحدار باتجاه قنوات

حتى وصلنا إلى وادي قنوات حيث تجري المياه بشكل نهر صغير فكان أول مجرى ماء صادفناه بعد أن تركنا الأعوج، ومن هذا المرتفع المطل على الوادي شاهدنا بلدة عتيل التي تبعد ميلاً ونص الميل عن يميننا تحيط بها أحراج السنديان وهي واقعة على الطريق بين سليم وقنوات.

إن المناظر هنا تصبح جميلة رائعة فالجبال ذات أشكال أروع والوديان والمنحدرات مكسوة بالأحراج الدائمة الخضرة بينما تنتشر الخرائب الغبراء في كل جهة ومن هنا بدا المنحدر الذي تقوم عليه قنوات مغطى بالخرائب: جذوع أعمدة منتصبة وأبراج قبور مستديرة ومربعة وقطع ضخمة من البنيان متداعية ولما تسقط بعد وقد تجمعت كلها على تباينها في وسط الأوراق الخضراء.

وبعد أن قطعنا مجرى الوادي سرنا مدة عشرة دقائق على ضفته اليسرى فشاهدت هناك بناية فخمة تحتل مركزاً مشرفاً ينتصب إلى يسارنا وبعد أن تقدمنا مدة ربع ساعة في طريق متعرج بين الأشجار المتشابكة وبعد أن تسلقنا ضفة الوادي

الصعبة المرتقى وصلنا إلى البوابة، كانت هذه البناية مربعة الشكل محصورة ضمن سور حسن البنيان وكان يحيط بها من الداخل صوامع تستند إلى أعمدة جميلة وكان شكلها في الزوايا يشبه شكل القلب وفي الجبهة الشمالية استطالة واسعة لها وهي تحتوي على أنقاض كنيسة إلا أن العمران الداخلي أحدث عهداً من الأسوار الخارجية..... تسمى هذه البناية دير سنيد وربما استعملت في وقت من الأوقات كنيسة إلا أن الغرض الأصلي منها كان شيئاً غير هذا ويحيط بالباب إطار من الدوالي بعناقيدها.

لم نشاهد أي مخلوق ونحن نقترب من هذا البناء فقد كنا جميعاً نختفي بين الأشجار المتشابكة وما إن مضى بضع دقائق على بدئنا بالتنقيب حتى شاهدنا عدداً من البدو يحملون البواريد الطويلة وهم ينظرون إلينا شزراً من فوق هرم من الخرائب يرتفع أمام البوابة فلم نعر حركاتهم اهتماماً، بل تابعنا تفقد الآثار وقد أبدى بعض رفاقنا الذين وصلوا إلى البوابة قبل غيرهم رغبتهم في أن يتابعوا سيرهم منفردين إلا أن محموداً

أشار إلى الوجوه الشاحبة كوجوه الجياع وقد بدا عددهم الآن عشرة أو أثنى عشر ونبه بهدوء إلى أنه من الأفضل لنا أن نسير جميعاً معه والواقع أن نجاتنا من هجوم هؤلاء البدو علينا كان بفضل وجود الدرزي الوحيد فقد كان من الحمق محاولة الدفاع عن النفس في مثل هذا المكان فربما كان هناك مئات من البدو مختفين خلف أشجار السنديان ولم يلق علينا أي واحد من أولئك البدو السلام عندما مررنا بهم كانوا ينظرون إلينا بوجوه عابسة ولا ريب في أنهم كانوا يلعنون السبب الذي حرمهم من الغنيمة.

من دير سنيد يمتد طريق قديم إلى قنوات أو قناة وبعد أن سرنا عشرين دقيقة وصلنا إلى الوادي الذي بنيت المدينة على ضفته الجنوبية فقطعناه فوق جسر جديد وسرنا فوق جسر روماني إلى البوابة الخربة وبعد أن اجتزنا البوابة ببضع ياردات دخلنا باحة دار الشيخ حيث استقبلنا استقبال حسناً وبعد السلامات وألف دعاء ودعاء، من أجل صحتنا وسعادتنا هيئت

القهوة وقدمت وعندئذ اقترحت نزهه بين الخرائب فتقدم الشيخ بنفسه ليكون دليلنا فتبعنا ما لا يقل عن عشرين شخصاً.

بنيت قنوات على الضفة اليسرى من وادٍ عميق موحش، إن طول المدينة ما يقرب من ميل وعرضها نصف ذلك وإلى الجنوب منها واد آخر شديد العمق تنتصب خلفه تلة جميلة مغطاة بالأشجار، إن السور القديم يحاذي ضفة الوادي وفي بعض الأحيان يرتفع على جنبات الصخور العمودية وبعد أن يصل السور إلى القمة يتابع تقدمه فوق ظهر التلة ومن ثم يتجه غرباً ما يقرب من نصف ميل محاذياً ضفة الوادي الثاني الذي ينحدر في سيله المتعرج نحو الشمال الغربي ولم أدقق في الجهة الشمالية الغربية من المدينة إلا أنه يبدو بأنها لا تضم غير خرائب البيوت، ويعد أن تركنا بيت الشيخ صعدنا في شارع يحاذي ضفة الوادي المرتفعة وقد كان البلاط المرصوف في حالة سليمة جداً رغم القدم، إلى يميننا تقوم خرائب بيوت خاصة كبيرة بنيت بشكل متين ولطيف.

وقد لفت نظري بصورة خاصة الأبواب الحجرية التي كان أكثرها منحوتاً تملؤه أشكال نافرة بينما زين بعضها بأوراق العنب والأثمار وقد لاحظت أن هناك قناة تسير محاذية للشارع ويبدو أن هذه المنطقة من البلدة كان الحي الارستقراطي إذ أن المنازل الخاصة كانت فسيحة فخمة.

كان الموقع أخاذاً فالوادي الرهيب ينخفض فتندفع سيول المياه الصاخبة فوق أرضه الصخرية هناك المسرح والهيكل والمرتفعات الشبيهة بالقصور الحصينة بينما ترتفع فوقها جميعاً تلال باشان المكسوة بالغابات وبعد أن وصلنا إلى ظهر المرتفع استدرنا نحو اليمين وسرنا بين الأبنية الفخمة ومن هناك وصلنا إلى باحة فسيحة مرصوفة وإلى الجهة الجنوبية من هذه الساحة يرتفع بناء يثير الاهتمام والدهشة باتساعه العظيم وبجمال هندسته ورشاقتها.

هنا أخذ الشيخ بيدي وقد رفعت الكلفة بيننا، وقادني إلى مكان خرب في تلك الساحة المرصوفة وأشار إلى أسفل إلى

شيء يظنه جديرا بالاهتمام، كانت كل الفسحة التي تحت أقدامنا سلسلة من القناطر المرجح أنها كانت خزانا للماء الذي يجري في قناة من الوادي ومن ثم يوزع بالأقنية والقناطر إلى القسم الأعلى من المدينة ولم أتمكن من تحديد اتساع هذه القناطر بسبب الخرائب والشجيرات الملتفة التي كانت تخفي سطحه ومن هناك سرنا خلال بوابات قديمة وفوق جدران مهدمة وركام الأبنية حتى وصلنا إلى مرتفع من الأرض أشار منه الشيخ وقد أشرقت أسارير وجهه إلى خربة أمامنا كانت هذه الخربة معبداً صغيراً متناسق الأجزاء وهو يحتل مركزاً ملائماً جداً لإظهار جماله وأمامه باحة مرصوفة تحتها قناطر يظهر أنها متصلة مع القناطر الأخرى وبعد أن سرنا قليلاً إلى الغرب وصلنا إلى ساحة للسباحة يحيط بها سور يبدو أنه كان يحتوي على عدد كبير من صفوف المقاعد الحجرية وهنا وجدنا عدداً من التماثيل بينها رجال يلبسون الدروع وجوه إناث وخيّالة وكانت بقايا هذه التماثيل تجثم بين الخرائب فأشار الشيخ إلى هذه التصاوير وسألني باهتمام زائد عن قصد الأقدمين من

نحتها فأجبته : للزينة فبدا عليه أنه يفهم ويقدّر قيمة هذا العمل ولاح لي أنه يملك من الذكاء مايملكه غيره من أبناء بلاده، فرجل الدين المتعصب، قد يلعن هذه التصاوير أو قد يبصق فوقها إلا أن هذا الدرزي الفطن قد عرف فيها بقايا عهد أكثر ازدهاراً وأرفع مدنية.

تابعنا سيرنا بين مجموعة كبيرة من البيوت النصف الخربة ومشينا داخل الأسوار إلى الجهة الجنوبية الغربية من المدينة هناك تسلقت السور ونزلت إلى خارجه فرأيت أن السور في هذا المكان في حالة سليمة وفوقه أبراج على مسافات متناسبة وكانت تقوم على بعد بضع مئات من اليردات من السور وفي وسط غابة من السنديان مدافن تشبه القبور الموجودة في تدمر.....

قضينا السهر في حديث شيّق اشترك فيه بعض زعماء القرية وكان شيخ قنوات رجلاً حاد الذهن ذكياً فراح يسأل عن عادات الأوروبيين وقد بدا عليه السرور عندما كان نقولا يصف له الحافلات الكهربائية والتلغراف ولم يكن يكتفي بترديد «الله»

أو «ما شاء الله» في وضع المتعجب المتشكك إنه كان يظل يسأل حتى يحصل على شرح كامل للبخار والكهرباء وتحول الحديث من الميكانيك إلى السياسة وحينئذ اتخذ الشيخ وكان يجلس بقربي لهجة الصديق الواثق وانهال علي بالأسئلة عن نوايا الحكومة حول التجنيد والحرب، وقد حاولت ولكن عبثاً الجهر بجهلي للأمور السياسية وخاصة جهلي بالدسائس والرشوات التي تقوم بها السلطات في دمشق، ومع ذلك فقد ظل يلح علي لكشف السر الذي كان مقتنعاً بأني أملك معرفته.

فأخبرته بأني أعتقد شخصياً أن الحرب لن تتجدد وأن التجنيد قد أهمل أمره بالنسبة إلى الدروز، وقد استعملت شتى الوسائل التي أملكها للتأكيد بأنه ليس لي أي اتصال بحكومة تركيا أو إنكلترا، وأنه ليس لي أي غرض سياسي في رحلتي هذه ومع ذلك فإنه لم يرد أن يقتنع والواقع أنني كنت أحمل رسائل توصية من مستر وود وهو وسيطهم مع السلطان إلى جميع الزعماء الرئيسيين وهذا ما جعل الدروز يشكون في أن لي أغراضاً أخرى إلى جانب الاهتمام بالآثار والفضول العلمي.

وفـي المسـاء سـررنا بزيـارة معلـم القريـة لنـا وهـو أول معلـم سمعت به في حوران فهو رجل عجوز وقور ذو عينين وقادتين ولحية مسترسلة.

وقد استقبل باحترام كبير وقد وضـع فـي صـدر المضـافة وقد أخبرنـا أن مدرسته تتألف من عشرين ولداً تقريباً وقد سبق لـي أن رأيتهم وهم يجهرون بقراءتهم فوق سطح أحد البيوت.

بضـعة أسئلة أجـاب عليها قائلاً أن تلاميذه لا يملكون كتبـاً وهو لهذا مضطر إلى تعليمهم بطريقة كتابة الأحرف والكلمات فـوق ألـواح صـغيرة يحملونهـا معهـم يظلـون يـرددون أمثـولتهم المكتوبة إلى أن يألفوا صوتها وشكلها وقد رأيت فيما بعد هؤلاء الصـبيان يسـيرون فـي الشـوارع معتـزين بـألواحهم التـي كـانوا يعلقونها إلى أعناقهم.

كان الاهتمام بالتعليم هنا أمرا يثير الانتباه، ففي مثل هذه الظـروف المعيشـية القاسية وفـي مثل هذه الأوقات وبمثل هذه الوسائل الدراسية كان عجباً ورائعاً أن يلقى أمر التربية عناية

وانتباه ولم يسعني إلا أن أشفق على هؤلاء الأولاد المساكين الذين كانوا مضطرين إلى حفظ المبادئ الأولى من لغتهم بفضل أحرف بدائية تخربش فوق ألواح سمجة، ولم يكن بوسعي إلا أن ألقي نظرة إكبار واحترام على هذا الرجل الذي وهب نفسه لمهمة تعليم الشبيبة وقد علمت أن أكثر الأولاد والشبان في القرية يستطيعون القراءة وأن بعضهم يعرفون الكتابة.

يسكن الشيخ الرئيسي للديانة الدرزية في قنوات ولم أره غير أن مستر كويل زاره في بيته وقابله مقابلة طويلة وقد سمعت منه أنه ليس في هذا الشيخ ما يميزه عن غيره من أبناء جلدته سوى ذكائه الرفيع، وكان عنده بعض المخطوطات مصفوفة حول جدران غرفته.

وفي المساء زارنا عدد من البدو من أهل الجبل وهم في درجة تتوسط بين البدو والفلاحين وهم يعيشون في الخيام مثل العربان ولكنهم مستقرون مثل الحضر، وفي آخر السهرة ذهبوا جميعاً إلا واحداً سبق لي أن رأيته بين أولئك الذين كانوا يتربصون بنا في دير سنيد فعرفته وقد تندرنا بأفكاره الخاصة

وملاحظاته التي كانت تصور أخلاق أبناء جلدته وعاداتهم، وها إني أقدم إلى القارئ طرفاً من حديثنا أثناء السهرة قد يعطي القارئ فكرة عن حياة البدو في هذه المنطقة.

سألته: ماذا جاء بكم إلى الدير عندما رأيتمونا هناك؟

فأجاب ببرودة: لنسلبكم.

- ولماذا لم تفعلوا ذلك؟
- لأن محمود كان معكم
- ولكن لماذا تريدون سلبنا؟ ونحن غرباء ولسنا أعداءكم.
- هذه عاداتنا
- وهل تسلبون كل الغرباء؟
- نعم كل ما تستطيع أن تصل إليه يدنا
- وإذا قاوموكم أو كانوا أقوى منكم؟
- في الحالة الأولى نطلق عليهم النار من خلف الأشجار وفي الثانية نهرب
- كيف يعيش رجال قبيلتكم؟ هل يزرعون أو يربون الماشية؟

فأجاب باعتزاز:

- الحمد لله لسنا فلاحين نحن نرعى الماعز والغنم ونصطاد الحجل والغزلان ونغزو.
- هل كلكم غزاة؟
- نعم كلنا.

كانت أجوبته تنطلق بغاية من الهدوء ودون تحفظ أو تكلف وفي أواخر السهرة طلب منه الدروز أن يخرج من غرفتنا رغبة منهم في إظهار الاحترام الكلي لنا إلا أنه رفض بعناد وقال بأنه يريد أن ينام مع "البكوات" وطلب منه خادمنا أيضاً أن يذهب إلا أنه حدجه بنظره وظل ساكتاً وعندئذ بدا أن بعض وجوه الدروز قد مالوا إلى التدخل في الموضوع بشكل جدّي فقلت أننا كضيوف لا نمانع في السماح للرجل في أن ينام حيث يشاء وعندما سمع الشيخ منا هذا طلب من الحضور أن يبقوه حيث هو وقد سمعنا صاحب الدار يخاطب البدوي وهو يغادر المضافة بلهجة ناعمة لكن حازمة قائلاً: «حذار أن تسرق شيئاً من هذه الغرفة» وكان هذا التنبيه ناجعاً.

4- شبـاط

نهضنا باكراً للتجول بين الخرائب فتوجهنا أولاً نحو الوادي واجتزنا مجراه الصخري ثم سرنا بمحاذاة ضفته اليمنى حتى المسرح، إنه سليم تقريباً في ما عدا واجهته الأمامية وهو في أكثره منحوت من الصخر الصلب المنتصب على السفح السريع الانحدار المتجه نحو الغرب، وهذا كان يمتع المشاهدين بمنظر رائع، وأمامهم ترتفع الحافة الصخرية منتصبة على ضفة الوادي وينتصب فوقها السور الحاجز وعمارات أعيان المدينة وإلى اليمين قليلاً ينساب نظرهم خلال الوادي إلى السهل ومن ثم إلى المعمم بالثلج في الأفق البعيد وإلى جانب المسرح هيكل صغير بني فوق نبع فوار.

ومن هناك صعدنا في درج محفور في الصخر إلى خرائب برج ضخم ويظهر أنه من عهد أقدم من حكم الرومان في سورية كان في داخله عدة أبواب حجرية على غاية من الجمال وفوقها رسوم نافرة وإطارات وأشعار وقد لاحظت في واحد منها مكاناً لإغلاق الباب من الداخل وثقباً للمفتاح أيضاً وعلى

مسافة قريبة منه نحو الشرق ترتفع الجدران السفلى لبرج مستدير قديم العهد جداً محيطه أربعة وثمانون قدماً وقد وقع نظري من هناك على عدد آخر من الأبراج هذه الأبراج القديمة تشغل هنا مركزاً مشرفاً فوق قمة المرتفع الصخري العامودي المنتصب على حافة الوادي الصخرية ومن هناك سرحت بصري في منظر من أجمل مناظر سورية فقد سبق لي أن وقع نظري بين قمم لبنان وفي قمم السلسلة الشرقية على مناظر أعظم وأرهب ورأيت عندما وقفت على القصر القديم في تدمر خرائب أكثر اتساعاً وأبنية أكثر جمالاً وروعة تجثم تحت قدمي ورأيت من فوق جدران معبد الشمس المتداعية في بعلبك آثاراً أدعى إلى افتخار الإنسان بمقدرته وأكثر اعتزازاً بمظاهر عبقريته إلا أنه لم يسبق لي أن تمتعت بمثل هذا المشهد الذي تنسجم فيه الطبيعة والفن هذا الانسجام الرائع أنك لا تجد هنا عظمة لبنان الرهيبة بمنحدراته الصخرية المفزعة وقممه المعممة بالثلج ولا بعلبك المنبطحة بأسوارها الجبارة وأعمدتها الساحقة ولا وحشة تدمر التي تنتشر خرائبها فوق سهل أجرد عار من كل خضرة أو سمرة تبرز بياضه الناصع غير أنك تجد هنا التل والوادي والسفوح المكسوة بالأحراج والشعاب المنعزلة.....

صخور ترتفع كأسوار القلاع، خرائب تكسوها الطحالب وصفوف الأعمدة ترتفع من خلال خضرة الأشجار وبينما كنا واقفين ونحن نتأمل كأنما استولى علينا السحر امتلأت سفوح التلال حولنا فجأة بالحياة فرددت الوديان الشعاب أصوات الرعيان وثغاء القطعان وهي تساق إلى المراعي وكان كل راعٍ يحمل زاده في جراب صغير ولا شك بأنه الجراب الذي وصفه العهد القديم وكان يحمل أيضاً مطرته بينما علق حول منكبيه بارودته ذلك الرفيق الذي لا يستغنى عنه في هذه البلاد الغارقة في المنازعات ولم يكن هؤلاء الرعاة يملكون شيئاً من المظهر المسالم الذي اشتهرت حياة الرعي وعاداتها بل كان قد منظرهم يدل على الشراسة والوحشية وعلى الأخص الرعاة البدو ومع أن ملامح الدروز كانت تبدو عابسة متجهمة إلا أنه سرعان ما تبدد بسماتهم هذا العبوس والتجهم عندما كانوا يمرون بنا أما البدو فقد كانوا يحدجوننا بأبصارهم كأنما كل نظرة تقول... (لو صادفناهم على بعد نصف ساعة من الدروز لكان لنا معهم شأن آخر) كان عتادهم هائلاً فقد كان أغلبهم يحملون بالإضافة إلى البارودة الطويلة فأساً حربياً وفي أحزمتهم الطبنجات والخنجر.

وبعد أن كسرنا السفرة تابعنا أنا ومستر بارنت تتقيباتنا وتركته ينسخ بعض الكتابات بينما تابعت سيري وحيداً إلى الهياكل المنتصبة على القمة وبين ما كنت منهمكاً في رسم مخطط لمجموعة من الأبنية شاهدت أربعة من البدو يسرعون الخطى نحوي من وراء غيضة من أشجار السنديان كنت وحيداً بعيداً عن المساكن المأهولة مسافة لا تقل عن ربع ميل ولم أعلم أنهم لا يجرؤون على إطلاق النار علي ولذا ألقيت نظرة سريعة لأتعرف على طبيعة الأرض وتسلقت قمة أحد الجدران وأنا أتظاهر بعدم انتباهي إليهم ثم سرت فوق هذا الجدار مسافة قصيرة على مرأى منهم متظاهراً بأني عائد أدراجي إلى الهيكل الصغير فوصلت إلى مكان متهدم من الجدار يصعب اجتيازه فنزلت فيه إلى داخله وبينما كنت أنزل كنت ألاحظ أن البدو قد غيروا وجهة سيرهم ورأيتهم يسرعون باتجاه ثغرة في الجدار قرب الهيكل وعندما غبت عن نظرهم فوصلت في بضع ثواني إلى حلبة السباق فقفزت فوق المقاعد ورحت أتعرج في سيري بين الأشجار حيناً وأتسلق الجدران حيناً آخر حتى وصلت إلى سطح بيت وجلست فوقه على مقربة من نفر من الدروز وهناك

أخذت أوراقي ورحت أرسم مخطط الهيكل الذي كان ينتصب أمامي بمظهره البارز الفخم تحف به تلة مكتظة بالأشجار وكنت أتسلى و أنا منهمك في عملي بمنظر أصحابي البدو الذين كانوا يقفزون كالهررة بين الأشجار حتى إذا صاروا على مقربة من باب الهيكل انقضوا إلى الداخل مسرعين لقد كانت دهشتهم عظيمة عندما وجدوا أنني لم أكن هناك وكانت دهشتهم أكبر عندما رأوني أنظر إليهم من بعيد بهدوء من مسافة بعيدة.

وصل المستر بارنت ومعه جماعة من الدروز فسرنا جميعاً إلى القصر (السراي) وهو الاسم الذي يطلق على البناء اليوم إن أقسام هذا البناء، التي لا تزال واضحة المعالم، ثلاثة المجموعة الأولى ليست في وضعها الأصلي إذ إن الباب الغربي أحدث عهداً من البناية نفسها والباب الأمامي قد سدّ بالحجارة المنحوتة والداخل حول إلى ما يلائم الكنيسة ويشاهد المرء حول الباب الغربي خليطاً من النقوش يتكون من الأوراق والثمار ولكنه لا يدل على ذوق رفيع وفي أماكن مختلفة منه تبدو عدة صلبان وإلى الشمال يوجد باب من الطراز الكورنيش وفي الأعمدة حاملات للتماثيل كما هي الحال في تدمر إن

طول هذا البناء 98 قدماً وعرضه 69 ويلاصقه من الشرق قاعة فسيحة في غاية من الجمال ذات بوابة كورنيثية من ستة أعمدة، إن ترتيب البنايتين فريد من نوعه يتصل بهذه الباحة باحة أخرى واسعة باب من الجهة الجنوبية وهذا الباب من أغنى الأبواب بالزخارف ومن أجمل ما رأيت في حياتي فالعتبة والجانبان جميعها مزينة بشكل فني دقيق بنبات تحيط بها أوراق وزهور وعناقيد وفي منتصف القبة صليب رومي ولكن الظاهر أنه قد أضيف في عهد أحدث إن طول القاعة (84) أربعة وثمانون قدماً وفي نهايتها الجنوبية نصف دائرة عمقها (15) خمسة عشر قدماً أما العرض فلم أتمكن من تقديره بسبب الخرائب والشجيرات البرية وينتصب على الجانبين صفان من الأعمدة في كل صف سبعة منها ترتفع فوقها تيجان مربعة إلا أن الإفريز الذي يعلوها مزخرف زخرفة رائعة وعلى جوانب هذه القاعة أسس ضخمة لقاعات أخرى، إلا أن الأرض الآن مغطاة بأكوام من الحجارة والشجرات البرية إلى درجة لم أستطع معها أن أرسم مخططاً لهذا البناء ولم نعثر على أي كتابة أو لوحة تلقي ضوءاً على تاريخ هذا البناء الضخم الرائع أو على

الغرض من تشيده وقد زاد في استغرابي إمكانية اعتبار جميع الأبنية التي تكلل هذا المرتفع من عمل شخص واحد فالقصر بباحته الفسيحة المبلطة والخزانات والقاعات الفسيحة والمعبد الكائن بقربه حلبة السباق بتماثيلها العديدة والأبنية الصغيرة التي تضمها هذه الفسحة أو تحف بها كل ذلك يبدو كأنما هي أقسام لمؤسسة واحدة ضخمة، كان انتخاب هذا المركز موفقاً للغاية فإلى الشرق والجنوب وديان وقمم مكسوة بالخضرة وإلى الغرب والشمال يمتد سهل واسع تنتصب في أفقه سلسلة لبنان الشرقية.

أما الهيكل الواقع إلى الغرب من القصر فإنه قطعة فنية جميلة وهذه الأعمدة لا تزال واقفة وعلوها ما يقرب من (34) أربعة وثلاثين قدماً وقطرها (3) أقدام و(6) إنشات وقد شاهدت في الفسحة المكشوفة أمامه حطام بعض التماثيل بينها رأس لبوة وبقربها رأس ضخم نحت بشكل بارز في الصخر بوجه عريض وخدين متسعين وعلى مفرق الرأس هلال ترتفع منه أشعة بينما التف حول الوجه شعر كثيف مضفور وقد أثار هذا التمثال استغرابي وأعتقد أنه يمثل عشتروت الآلهة التي كانت تعبدها الأمم السورية والعرب قبل عهد محمد ونحن نعلم من

التوراة أن البلاد الواقعة وراء نهر الأردن وعلى الأخص باشان كانت مختصة بعبادة عشتروت من أقدم العصور حتى أن إحدى مدنها الرئيسية كانت تسمى عشروت قرنائيم أي عشتروت ذات القرنين أو ذات الهلال، ونحن نعلم أن هذه المدينة كانت إحدى عواصم مملكة باشان التي ذكرتها الأسفار ولهذا كان على غاية من الأهمية أن نجد في قنوات وهي واحدة من أقدم مدن باشان أثراً شاهداً على عبادة عشتروت وبعد أن أتممنا مشاهداتنا سرنا فوق أكوام من الأعمدة المتهدمة التي تختلط بالشجيرات النامية في داخل الجدران فوصلنا هذا الممر الضيق إلى باحة كان يجلس فيها عدد من النساء وهنّ منهمكات في العمل وعندما اقتربن منهن غطين الجزء الأسفل من وجوههم وعندما كنت أشرب من طاسة الماء التي قدمتها إلي إحداهن رأيتهن جميعاً يقفن ويقبلن ولداً صغيرا كان يسير خلف جمعنا وكانت كل امرأة تجهش بالبكاء وتردد الكلمات التالية: الله يخليك يا بني.

تعجبت من ذلك وسألت عن السبب فأخبرت أن والده قد قتل في المعركة وإن أمه قد سقطت برصاص الجنود الأتراك

بينما كانت تحاول أن تنقل جثة زوجها، مسكين هذا الولد لقد انقضت عليه مصائب بلاده البائسة ووحشية حكامها وهو في سن مبكر وبعد أن ابتعدنا قليلاً وضعت في يده قطعة نقود فنظر برهة بذهول ثم إلى العملة وأغلق يده بعزم ورجع راكضاً إلى النساء فطرق سمعي وأنا أتسلق الجدران المتداعية أصواتهن وهن يجهرن لنا بالدعاء للبيك الذي واسى اليتيم المسكين.

بعد أن انحدرنا في سيرنا مدة عشر دقائق فوق السفح المدرج وصلنا إلى واد ملتف الأشجار حيث ينتصب معبد من أجمل أبنية قنوات وقد شيد هذا المعبد فوق مصطبة ترتفع حوالي 12 قدماً وتحتوي هذه المصطبة من الداخل على أقبية تشبه المدافن في الكنائس ولها ركائز ضخمة يستند عليها السقف المرفوع على قناطر طول المعبد45 قدماً وعرضه ثلاثون وكان لهذا المعبد مدخل يتجه نحو الشرق وهو مؤلف من صفين من الأعمدة يتألف كل واحد منها من ستة أعمدة وكان يلتف حول جهاته الباقية صف من الأعمدة تتناظر مع الأعمدة القائمة في الصف الأمامي من المدخل كانت جميعاً ترتفع فوق قاعدة علو الواحدة ستة أقدام وطول الباقي ما يقرب

من 36 قدماً تيجانها كورنثية وقد صنعت بشكل فني، ويبدو أن كل عامود كان يحمل كتابة صغيرة في قاعدته.

إن مركز هذا الهيكل جميل جداً فجنبات الوادي لطيفة الانحدار ملتفة الأشجار وإلى الشرق تنتصب أسوار المدينة وترتفع فوقها الضهور مكسوة بالأحراج المتوجه بالخرائب والأبراج المستديرة، وإلى الغرب تنحدر الأرض ببطء نحو السهل فتبدو خرائب عتيل في وسط الخضرة الكثيفة.

تلك هي آثار قنوات ويوافقني القارئ على أنه من النادر أن تجد في سورية مواقع تفوق قنوات في اتساع أبنيتها الأثرية وأهميتها وهي ليست مثل بعض المدن التي سبق أن زرناها والتي لم نعثر لها على اسم أو تاريخ فإن تاريخ قنوات على قلة الوثائق التي وصلتنا عنها يعود إلى أكثر من ثلاثة آلاف سنة وقد ظلت مدة ألفي سنة في عداد المدن الرئيسية في باشان....

الفصل الثاني عشر

من قنوات إلى بصرى

بينما كنت واقفاً أنتظر الانتهاء من حزم أمتعتنا تقدم مني صديقي الشيخ وبيده منظار طويل قديم وسألني كم يكلف مثل هذا المنظار عندما يكون جديداً وبعد أن فحصت هذه الآلة تعجبت من تركيبتها وسألته عن كيفية وصولها إليه فقال أنه أخذها من ضابط في جيش إبراهيم باشا أثناء الحرب الدرزية إلا أنها كانت قد تكسرت في المعركة.

حاول نقولا جاهداً أن يقنع الشيخ بأن يقبل منه بعض النقود مقابل ما تكلف علينا غير أنه رفض أن يأخذ أي بارة وفي الساعة الواحدة والنصف تركنا قنوات وأرسلنا خادمينا في طريق السويداء بينما ركبنا نحو أبراج المدافن.

إن أبنية هذه المدافن مربعة ومؤلفة من طابقين أو ثلاثة أبوابها ونوافذها صغيرة وفي داخلها نواويس شبيها بالتي نراها

في تدمر والجدير بالذكر أن بركهاردت قد وجد في هذه المدينة كتابة بالتدمرية كان دربنا ضيقا وعرا متعرجاً بين أغياض السنديان بينما انتثرت الخرائب هنا وهناك وارتفعت فوق خضرة الأحراج وما أن سرنا قليلاً بعد ذلك حتى التقينا بالطريق الروماني وسرنا فيه إلى السويداء صادفنا ونحن نسير فوق الطريق الصخري درزياً يحمل بارودته فوق كتفه وولداً صغيراً على الكتف الآخر فرفع محمود الولد ووضعه بقربه على الحصان فمن أطيب مزايا هذا الشعب أن كل فرد منهم مرتبط مع غيره بأشد أواصر الأخوة فنادراً ما يقع خلاف بين بعضهم وبعضهم الآخر وفي الحرب يقاتلون كرجل واحد وفي المعاملات المتبادلة بين بعضهم والبعض الآخر تجدهم أصحاب أمانة وشرف حسب ما أتيح لي أن أتأكد شخصياً.

خرجنا بعد ساعة من سيرنا من حرج السنديان وانطلقنا من فوق منحدر وعر مفتوح فشاهدنا السويداء أمامنا فوق منخفض

كان يفصلنا عن خرائبه وادٍ وعندما وصلنا إلى ضفته أعطيتُ محمود رسالة التوصية التي نحملها ليوصلها إلى الشيخ بينما استدرنا إلى اليمين قليلاً لمشاهدة أحد الأبنية فوصلنا بعد دقيقتين من سيرنا إلى واحدة من أغرب أبنية هذه المنطقة فهي بناية مكعبة متقنة الصنع ضلع قاعتها ما يقرب من 13 ياردة وعلوّها حوالي 30 قدماً.

وينتصب على جوانبها أنصاف أعمدة دورية عددها ستة في كل جهة وهي تحمل رفرافاً وإفريزاً وبينها رسوم دروع من الزرد ودراقات وتروس في جهتها الشمالية قرب الزاوية الشرقية وعلى علو ستة أقدام من الأرض بدت كتابة باليونانية هذه ترجمتها: اذيناتس ابن انيلوس شيّد هذا البناء، لحمرات زوجته، وقد شاهدت فيها أيضاً كتابة بأحرف تدمرية ومن الملاحظ أن اسم اذيناتس هو أحد الأسماء التي تردد في أبنية تدمر وأن هذا الاسم بالتالي هو اسم الزوج الشهير للمرأة التي فاقته شهرة وأعني زنوبيا.

يجري الوادي الذي يطلق عليه اسم وادي السويداء بين هذه البناية والمدينة. ويقوم فوق هذا الوادي الشتوي جسر روماني بقنطرة واحدة، وبعد أن اجتزنا ضفته الجنوبية فوق طريق قديم وصلنا إلى بركة واسعة تبدأ الخرائب في الجهة الثانية منها، ذهبنا إلى بيت الشيخ فوجدناه غائباً فدخلنا إلى المضافة وبدئ بعمل القهوة فكومت فوق الجمر الباهت قطع ضخمة من الحطب الأخضر فامتلأت القاعة بالدخان من قبل أن تشتعل النار فيها كانت اللياقة تدعونا للبقاء في أماكننا إلا أن عيوننا المتضايقة أرغمتنا على الهرب فجلسنا خارج الباب إلا أن القهوة لم تقدم لنا فقد جرحنا شعور الجماعة وبعد أن انتظرنا نصف ساعة اقترحنا أن نقوم بنزهة بين الخرائب فتبرع ابن الشيخ بأن يكون دليلنا وهو يافع ظريف في الرابعة عشر من عمره حسن الملبس يحمل في حزامه خنجراً محلى بالفضة، كان أول ما زرناه صفاً من الأعمدة بالقرب من بيت الشيخ كانت الأعمدة هنا عديمة الذوق وكذلك التيجان الكورنتية حتى أن الرفراف

كان زريا بينما كانت العواميد ذاتها بحجوم مختلفة ونحت غير متناسق أما البناء فقد كان مشيداً من مواد أعرق في القدم.

وبالقرب من هذه البناية ينطلق شارع طويل مستقيم يقسم المدينة وفي نهايته العليا بقايا بوابة رومانية وعلى مسافة قريبة منه وإلى الجهة السفلى بناية على شكل نصف قمر ربما كان يتصل بها أقنية مرتفعة وفوق هذه البناية كتابة عليها اسم تارجان وتاريخها 103 ب.م، وهذا أمر هام لأنه يدل على المدن في هذه المنطقة لا تعود في نشأتها إلى الرومان بل إنما كانت مأهولة وعامرة منذ وقت أقدم بكثير.

وإننا نجد فعلاً أن هندسة المساكن الرئيسية ليست مستعارة لا من اليونان ولا من الرومان بل هي خاصة لهذه المنطقة، اتجهنا نحو الغرب وسرنا فوق المنحدر الذي بنيت عليه المدينة وبعد أن سرنا فوق أكوام من الحجارة المصقولة والأنقاض نزلنا إلى باحة كنيسة ضخمة سقط سقفها في نهايتها الشرقية مصلى نصف دائري وفي الجدران صفوف من النوافذ تعلوها الأقواس

وهي تبدو في كل جهة منها ويغطى داخلها العواميد والتيجان وقطع من الأفاريز الساقطة وهي غنية بالنقوش وخارجها أكوام من الخرائب تشهد عن رخاء الأيام السالفة وترفها وقد استنتجنا من حجمها وتزييناتها أنها كانت كاتدرائية أما الآن فقد اختفت مقبرتها وارتفعت الأعشاب البرية فوق القبور المهملة لأولئك الذين يرقدون بين جدرانها وحتى الكنيسة نفسها كانت مبنية من حجار ومواد أكثر قدماً وتابعنا سيرنا نتجول بين الخرائب، خرائب لا شيء خرائب ووحشة وعظمة زائلة وشقاء جاثم هذا ما كان يقع عليه نظرنا أما بيوت الأهالي الحديثة فإنها الأدوار السفلى للمنازل القديمة وكانت الأرض مغطاة بالركام والخرائب بكثافة إلى درجة بدا معها أن هؤلاء الناس يعيشون في أقبية أو كهوف هنا فقط في هذه الأبنية المشيدة تحت الأرض يستطيع الإنسان أن يشاهد هندسة الشعوب القديمة في باشان فالأبنية اليونانية والرومانية والمسيحية التي بنيت بقربها وأحياناً فوقها فقد سقطت أكواماً من الخرائب وفي أكثر الأحيان دفنت تحتها ما كان أقدم منها.

كان يتبعنا ما يقرب من ثلاثين أو أربعين ولداً وعليهم سيماء الرجولة وهم يصرخون ويرقصون بضوضاء قوية حول الفرنج وربما كان الكثيرون من هؤلاء الصبيان يرونهم لأول مرة ولم يكن يمنعهم من التجمع حولنا ومنعنا من التقدم إلا التهديد المتواصل من ابن الشيخ يتبعه أحياناً رشق من الحجارة وعندما كنا نمرّ بالقرب من البيوت كانت بعض النساء المحتشمات والبنات الحييات يتغامزن علينا من فوق الحجاب الأبيض وتشير كل واحدة منهم إلى الأخرى عن شيء عجيب مستغرب في لباسنا إذ أن أكثر ما لفت انتباههن قبعاتنا وقد أصررن على تسميتها بالطناجر، لقد كنا في الواقع مثار للاستغراب كما يحدث لجماعة من البدو بعباءاتهم الواسعة وعمائمهم الضخمة وهم يسيرون في بلد ريفية من بلاد الانكليز وإني أميل إلى الاعتقاد بأنه لو قيّض لنا الانتقال إلى قرية انكليزية نائية في الحالة التي كنا عليها لكنا أثرنا فضول الناس هنالك أيضاً.

وقد شاهدنا أثناء سيرنا في القسم الأسفل من المدينة بعض النساء العربيات المسيحيات وهنّ يصنعن أبسطة لبيوت الشعر

ويصنع البساط حسب الطول المرغوب ثم يجمع كل ثلاثة أو أربعة مع بعض وهكذا يتم صنع الخيمة، لقد أخبرنا هنا كما أخبرنا أيضاً في الهيت وشهبا أن العائلات الرئيسية في جبل الدروز عندها بيوت من الشعر جاهزة في دورهم حتى إذا جددت الحكومة الحرب ضدّهم وغلبتهم فإنهم يتركون منازلهم ويعودون إلى حياة التنقل، مفضلين ذلك على الخضوع للتجنيد، كانت هذه النساء أحسن ما رأيت أناقة في حوران كانت ملامحهن منسجمة ومن ثم جميلة وعيونهن الحوراء ذات الأهداب الطويلة تسبغ على مظهرهنّ سحراً لا يوصف وقد صبغن ما تحت شفاههنّ باللون الأزرق العميق مثل نساء البدو، وكانت أيديهنّ وأذرعهنّ منقشة بخليط من الصلبان والقديسين والملائكة.

وقد دخلنا إلى مسجد واسع يرتفع سقفه فوق أعمدة أخذت من أبنية أقدم وأجمل وكان داخله مغطى بأكوام من الخرائب وعلى مسافة قصيرة إلى الشرق من هذا المسجد تقوم بناية صغيرة متقنة الصنع وهي أكثر انخفاضاً من الخرائب المحيطة

بها فظننتها لأول وهلة عين ماء إلا أنني عندما نزلتُ إليها لم أجد فيها ما يؤيد ظني فقد رأيت كتابة بأحرف صغيرة جداً فوق حجر ضخم بدا منه أن بعض الأشخاص وتذكر اللوحة أسماءهم قد أقاموا معبداً لتماثيل الآلهة منيرفا وتذكر اللوحة أن هذا البناء قد تم عندما كان مارك أوريليوس أنطونيوس قيصراً ونحن نعلم أن الإمبراطور سيفيريوس قد خلع بعد أربع سنوات من حكمه لقب قيصر على ابنه باسيانوس ودعاه مارك أوريل أنطونيوس وعرف فيما بعد باسم كركلا وكان ذلك عام 196 بعد الميلاد.....

إن خرائب السويداء هي أقل أهمية بكثير من آثار قنوات إلا أن الآثار هنا أكثر اتساعاً وقد قدرت محيطها بأربعة أميال وكان يخترق المدينة من الطرف الغربي طريق روماني وهو امتداد للطريق القادم من فينو (المسمية) فينطلق منه فرع إلى قنوات بالقرب من سليم إلا أن الخط الرئيسي يمتد مستقيماً من سليم إلى السويداء ومن ثم إلى بصرى.

وعندما رجعنا إلى بيت الشيخ وجدنا أن وجوه القرية قد اجتمعوا هناك فاستقبلونا باحترام ولكن بغير الحرارة التي اعتدناها فجلس محمود على حدة وبدا عليه أنه لم يكن راضياً أمّا نحن فلم نكترث لذلك كثيراً طالما ظل مسموحاً لنا أن نتجول ونتفقد الخرائب وقد بدأنا بالتفكير الجدّي لأن نطلب من خادمينا أن يهيئا لنا الطعام وفي هذه البرهة ارتفع صوت يقول بأن الشيخ قد وصل والتفتنا فرأيناه فوق فرس بيضاء رائعة وهو يلبس عباءة قرمزية وعمامة بيضاء إلا أنه كان بلا مرافقين ولا سلاح فوقفنا مع الجماعة وبعد التحيات المعتادة قدمت رسالة التوصية وبعد أن ألقى نظرة على محتوياتها دفعها إلى كاتبه وأمره أن يقرأها بصوت عالٍ، عندئذٍ تغير المشهد وبدت على الوجوه إشراقة البسمة المرحّبة وانهالت علينا الاعتذارات والتمنيات وكان من حقنا أن نعذرهم بسبب الشكوك التي زاولتهم من وجود هؤلاء الغرباء الذين يزورون قريتهم في مثل هذا الوقت ويفحصون معالم الخرائب والمناطق المحيطة بها ويسألون شتى الأسئلة.

إن الشيخ واكد الحمدان من أشرف عائلات حوران وهو في المقام الأول بين زعماء الدروز بالنسبة إلى مركزه الاجتماعي إن أصل عائلة الحمدان هو من قرية عين عنوب في لبنان إلا أنه كان قد مضى على إقامتها في السويداء أكثر من نصف قرن وإن الشيخ الحالي هو زعيم العائلة وهو في الخامسة والأربعين من عمره قصير القامة يميل إلى السمنة ملامحه معبّرة وتقاطيعه منسجمة وقورة وله أنف روماني بارز وشفتان صغيرتان مضغوطتان وعينان ثاقبتان ولحية طويلة سوداء صوته ناعم وأحياناً خافت إلا أن كلماته تخرج بهدوء ودقة مما يدل على أنه كان يزنها قبل أن ينطق بها اشتهر بأنه ذو رأي صائب شهم ذو دهاء رغم أنه لم يشتهر بالإقدام في ساحات القتال وقد ساهم مساهمة فعالة في الحرب الأخيرة.

وفي السهرة امتلأت المضافة الواسعة بالقرويين والغرباء وكان أحد البدو يشرف على تهيئة القهوة وراح يسرد لنا القصص الشيقة عن حياة الصحراء ومنازعاتها، كان هذا البدوي من قبيلة شمر وقد جاء إلى سورية مع حملة إبراهيم باشا ولكنه

وقع أسيراً في يد الدروز أثناء القتال في حوران إلا أنه لم يرجع إلى مسقط رأسه ومن المعروف أن قبيلة شمر كانت زهرة خيالة إبراهيم باشا ولم يكن أحد يفوقهم في الفروسية والشجاعة في القتال، فسألته عمّا إذا كان هناك شعراء في قبيلته فأجاب بأنه يوجد بينها الكثيرون وأسمعنا بعض قصائدهم المختارة.

إن الشعراء البدو يصفون في الغالب أعمال المحاربين أو الخيول المشهورة في قبيلتهم كل ذلك في مقطوعات قصيرة تتألف من بيتين أو أربعة وهي في الغالب على غاية من الروعة وهي تثير بخيالها القوي شعور الإعجاب وهناك أنواع أخرى من الأوزان الشعرية يكثرون من النظم فيها وقد برع بعضهم فيها إلا أنه يصعب على أولئك الذين يجهلون خصائص تركيب اللغة العربية أن يتذوقوها.

قضينا السهرة بسرور في الحديث عن الشعر والشعراء وإنشاد بعض المقاطع المختارة للكتاب والحكماء العرب المشهورين.

5 شبــاط

بـدا فجـر هـذا الصـباح قاتمـاً ينـذر بالعاصـفة وكـان البـرق والرعد يصحبه المطر قد استمرا طيلة الليلة الماضية أما الآن فقد غطت الغيوم القاتمة الأرض وغلّفت الجبال وكان الهواء بارداً وقد جعلته زخات المطر أشد برودة واتجهنا رغم ذلك إلى بصرى، لقد كان لطف الدروز وضيافتهم عظيمين إلى درجة شعرنا معها أنه يستحيل علينا أن نتمتع بالراحة والهدوء اللذين ننشدهما واللذين تمتعنا بهما في قراهم.

ليس في بصرى دروز وقيل لنا أنه يوجد هناك بعض العائلات المسيحية غير أن أملنا في ذلك عاد خائباً... ليس في حوران مدينة تفوق السويداء في اتساع خرائبها ومع ذلك فإن من المستغرب أن لا نجد حتى الآن ما يرشدنا إلى اسمها القديم ولم يذكر لها التاريخ اسماً قبل الحملات الصليبية.

لقد سبق لي القول بأنه من الأرجح أنها كانت مقراً لمطرانية وبأنها كانت واحدة من تلك المدن التي أطلق عليها اسم جديد، عندما أعاد الرومان بناءها أو تزيينها إلا أنه بعد سقوط السيطرة الرومانية بعثت الأسماء القديمة ونسيت الأسماء الحديثة وهناك أسماء رومانية كثيرة بين المدن العربية ذات المركز الديني وقد تعرفنا إلى اثنين منها – نيابوليس وفيليبو بوليس الأول اكتشفناه نحن والثاني بركهاردت.

لقد حل بالسويداء من مصائب الدهر وأحداث الحروب ما لم يحل في أي مدينة أخرى من باشان فقد خربت ثم عمرت ثم خربت ثم أعيد بناؤها إلى درجة لا يستطيع الإنسان معها أن يكون فكرة مضبوطة عن حالتها القديمة فالكتابات التي وجدت فيها تدل على أنها كانت مدينة مزدهرة قبل احتلال الرومان لها في سنة 105 ب. م، وأنها كانت مشهورة بالأعمال التجارية حتى منتصف القرن الرابع ويقول أبو الفداء أن قصر السويداء قد بناه أمير عربي اسمه النعمان قبل الفتح الإسلامي ببضعة قرون.

إن السفوح الواقعة حول السويداء قد حولها الإنسان إلى سطوح متدرجة والمنطقة تحمل دلائل تشير إلى أنها كانت تستغل باهتمام في العصور القديمة ومنحدرات الجبال سويت لتكون صالحة بشكل ناجح لتربية الكرمة والزيتون، والسهل المنبسط على أقدامها لا يزال يقدم الحبوب التي ضرب المثل بجودتها.

إن الأهلين أقوياء البنية نشيطون ويدل مظهرهم على جودة المناخ ومن المدهش أن تكون الأسطورة التي يرويها وليام الصوري عن بلدات لا تزال معروفة بين أهالي السويداء وهم يضيفون إلى ذلك أن أيوب نفسه كان ملك بثينة.

لا تزال السويداء منذ عدة سنوات العاصمة الفكرية لجبل الدروز ومقر زعيمهم الأول وهي من أكثف قرى المنطقة بالسكان والدروز والمسيحيون يعيشون بوئام معاً إلا أنه ليس فيها مسلمون.

تركنا السويداء الساعة التاسعة ثم انحدرنا في سفح وعر متجهين نحو الجنوب وبعد 7 دقائق من سيرنا بدا على يميننا

بناية تدعى دير سنان وإلى يسارنا بدا من بعيد قمة جبل قليب المخروطية وكان منظره جميلاً إذ يرتفع المخروط رائعاً فوق التلال المجاورة وكانت سفوحه متناسقة ملساء تغطيها أحراج السنديان يطلق بركهاردت وغيره على هذا الجبل اسم كلب أو كليب تصغيراً، وإنه من المستغرب أن يقع بركهاردت في مثل هذا الخطأ والمعروف عنده أنه ضليع من اللغة العربية أما الاسم الحقيقي للتل فهو قليب تصغير قلب، وفي الساعة التاسعة والخامسة والثلاثين مررنا بالمجيدل وتسكنه بعض العائلات ورأينا على بعد عشرين دقيقة إلى يميننا بناية تدعى دير الطريفة.... وبعد أن تقدمنا شاهدنا عن يميننا بلدة تدعى كناكر وعن يسارنا رساس بينما انتصب وراءها فوق تل مرتفع قرية السهوة كأنها الحصن، وفي الساعة العاشرة والدقيقة الأربعين وصلنا إلى قرية عرى الكبيرة، كنا قد أسرعنا في سيرنا مخلفين وراءنا خادمينا ولذا صعدنا إلى جانب البناية التي تشبه القصر والتي تقع فوق قمة التل بانتظار وصول رفاقنا ولإلقاء نظرة على تلك المنطقة غير أن الشيخ الدرزي أسرع إلينا حالاً مع نفر من المرابعين التابعين له وجرّنا بالقوة لننزل ضيوفاً عليه

وهذا الشيخ هو أخو واكد شيخ السويداء وابن الرجل الذي يتحدث عنه (بركهاردت) بإعجاب وما أن استقرينا المقام حتى رش الفحم الجديد فوق الجمر وهيئت القهوة وفي أثناء القيام بهذه المهمة كانت استعدادات أخرى تبدأ وقد لفت انتباهنا أولاً أصوات الديوك المرتعبة ثم تراكض هنا وهناك بالأطباق والصحون وأخيراً دخلت امرأة القاعة وأخذت كمية كبيرة من الطحين وسكب فوقه الماء عندئذ فهمنا أن هناك تهيئة مائدة وقد عزمنا على منعهم من ذلك إذا أمكن الأمر فلقد خبرنا السرعة في تهيئة الأطعمة العربية ومع ذلك فإننا لم نكن نرغب في أن نضيع وقتنا الذي كنا نعتقد أن صرفه بين خرائب بصرى أجدى وعندئذ تدخلنا جميعاً واستطعنا بعد الحديث والاعتذارات المتواصلة من نقولا عن القيمة الثمينة لوقتنا والأسف الذي نشعر به لفراقهم بمثل هذه السرعة والاعتبار العظيم الذي نكنّه لجميع الدروز وخاصة لعائلة الحمدان النبيلة بعد كل ذلك استطعنا أن نقنعهم بأننا مضطرون لمتابعة سيرنا إلى بصرى وكان هذا من حظ الدجاجات المسكينة التي سلمت بجلودها حتى وصول ضيف آخر.

كانت عرى مدينة عظيمة الاتساع إذ أن محيط خرائبها يتجاوز الميل إلا أنه لم يكن فيها آثار ذات قيمة ولا دلائل عن الرخاء والعظمة. تركنا عرى الساعة الحادية عشرة والنصف فوصلنا المجيمر بعد عشرين دقيقة فرأينا بيوتها من الحجارة ومن عهد قديم جداً وفي الساعة الثانية عشرة والنصف وصلنا إلى قرية وطر الواقعة فوق مرتفع من الأرض وقد رأينا على مسافة غير قصيرة إلى الجنوب الشرقي تلاً انتثرت فوقه خرائب أكثر اتساعاً وهي غسان ويذكر أبو الفداء قبيلة عربية قدمت من اليمن إلى هذه المنطقة قبل محمد بعدة قرون وكان يدعى زعماؤها «ملوك غسان» وربما أخذوا اسمهم من هذا المكان، وكان أحدهم باني قصر السويداء.

بعد أن سرنا مسافة بين الحقول المزروعة وصلنا إلى بناية ضخمة تدعى دير زبير، وهو بناء مربع جدرانه الحجرية سميكة وربما كان في عهد مضى ديراً كما يدل عليه اسمه، وكان حوله بعض البيوت القديمة أبوابها وسقوفها من الحجر إلا أنها الآن مهجورة.

الفصل الثالث عشر

من بصرى إلى صلخد، القريا، حبران، السويداء

كان برنامجنا اليومي الوصول إلى صلخد ثم العودة منها إلى القريا كانت على بعد ساعتين من بصرى فقد أرسلنا خدمنا إلى هناك مباشرة مع حوائجنا وأعطيتهم رسالة التوصية التي نحملها إلى الشيخ الدرزي وبهذا أصبح ركبنا ضعيفاً في وقت يحتاج إلى العدد إلا أننا كنا نعتبر أن بغالنا وحاجياتنا في حالة التقائنا مع البدو قد تضايقنا وتغري بنا الطامعين ومع ذلك فقد ظللنا خمسة أشخاص خيولنا جيدة وسلاحنا أيضاً وقد أخبرنا أن المنطقة التي يخترقها طريقنا لم تكن مسكونة بالرغم من أنها غنية بالقرى والمدن وأعلمنا أهالي بصرى أنه قد كثرت فيها في المدة الأخيرة عصابات البدو وهي تنتظر الفرصة السانحة لتنقض على بعض القرى المتطرفة أو لتسلب بعض القطعان غير المحروسة.

كان طريقنا الطريق الروماني الذي ينساب في خط مستقيم حتى صلخد مبتدياً بالصعود الخفيف من بوابة بصرى وقد فضلنا السير في الحقول اللينة على السير فوق الرصيف الصعب وقد لفت نظرنا قرية برد الجاثمة فوق مرتفع من الأرض وبدا لنا أن أبنيتها كبيرة مزخرفة فقررنا أن نعرج عليها وما أن اقتربنا منها حتى شاهدنا عدداً من الأشباح تتحرك بين بيوتها وقد ظن محمود أن هناك راعياً قد الجأ بمواشيه مخافة المطر، غير أنه سرعان ما ثبت لنا أن تلك الأشباح كانت رجالاً لأنهم بدأوا يتسلقون سطوح المنازل ليرقبوا تقدمنا وقد جزمنا بأنهم من البدو بسبب من أعلمنا بأن هذه المنطقة كانت غير آهلة وقد استغربنا وجود هؤلاء البدو في مثل هذا المكان وفي مثل هذه الساعة ومن ثم توصلنا إلى النتيجة التالية: وهي أنهم جماعة من معكري صفو الأمن فكان علينا عندئذ إما أن نهرب وإما أن نمر خفية عنهم وكان كلا الأمرين مستحيلاً أما الرجوع إلى بصرى فأمر لا يوافق أهدافنا طلب محمود منا أن نتوقف عن السير ليعطينا بعض المعلومات عن قتال البدو إذ

ربما نلتقي بهم اليوم أو في الأيام المقبلة، وكانت نصيحته الأولى بأنه لا يجوز لنا أن نحاول الهرب مهما كانت الظروف قائلاً بأن خيولهم خفيفة وبأن خصمهم الهارب يبعث فيهم الشجاعة وعلينا أن نطلق النار وهذا أملنا الوحيد وقال: بأن لا نسمح لأنفسنا بإطلاق النار إلا إذا تأكدنا من جندلة أحد الخيول على الأقل.

لم يكن هذا الخطاب ملائماً لرجال يريدون السلام وتمنينا فيما تمنينا لو كنا ذهبنا مع خدمنا إلا أن التمنيات في هذا المقام لم تكن مجدية.

كنا نعتقد أن الطريق أمينة أما الآن فقد بدا أن اعتقادنا كان خاطئاً وها نحن بدلاً من أن نهيء أنفسنا للخير صرنا نهيء أنفسنا للشر، ومع ذلك أكدنا لمحمود أننا سنقف مهما يكن من أمر، وعندما التفتنا إلى البلدة رأينا عدداً من الناس مجتمعين فوق سطوح المنازل بينما بدت لنا الخيول مربوطة بقربها شدّ محمود كوفيته وسلّ سيفه قليلاً من غمده وتأكد من طبنجاته ثم

طلب منّا أن ننتظر عودته وتقدّم خلال الحقول إلى القرية التي بدت الآن على نصف ميل عن يميننا فرأينا رجلاً يخرج من القرية للقائه وبعد مضي ثوانٍ أشار بيده لنا كي نتقدم، فقد كان أولئك الذين اعتقدنا أنهم أعداء هم بضع عائلات من الفلاحين الذين جاؤوا منذ أيام قليلة ليستقروا في برد، وبعد أن تركنا برد وتقدمنا قليلاً تغيّر منظر المنطقة فقد بدت الآن موحشة عارية تغطيها كميات واسعة من الأحجار وهي أرض متموجة كثيرة الأخاديد ترتفع بينها التلال الصخرية فقد وصلنا الآن إلى الأطراف الجنوبية لسلسلة الجبال التي تتقدم كثيراً في داخل السهل وتابعنا صعودنا فوصلنا في الساعة الحادية عشرة والعشر دقائق إلى بضع حقول مغلقة ضيقة حيث كان بعض الدروز يقومون بأعمالهم الزراعية وفي كتف كل رجل منهم بندقية وفي حزامه طبنجة، قد يستغرب الإنسان أن يقوم هؤلاء الناس بمثل هذا الجهد والاعتناء في استغلال تلك البقع الصغيرة بين الصخور بينما آلاف الأفدنة من أجود الأرض تظل بوراً على بضعة أميال إلى الغرب منهم أن السبب البديهي

فالخيالة البدو لا يستطيعون القيام بهجومهم في الأراضي الوعرة وبواريد الدروز تظل أعظم مفعولاً بين الصخور. وفي الساعة العاشرة والدقيقة الخامسة والثلاثين بانت قرية دفن المقفرة على مسافة ميلين عن يميننا وبعد أن سرنا مسافة ثلاثة أرباع الساعة مررنا بالقرب من قرية المنيذرة فخلفناها إلى يسارنا وعندما وصلنا إلى ظهر المرتفع بانت علينا صلخد بشكلها الرائع وكانت الطريق تنطلق كالسهم مستقيمة باتجاه التل المخروطي الذي انتصبت فوقه القلعة فبدأنا نصعد تل صلخد وبدأ السفح يرتفع بسرعة بعد أن كان ارتفاعه تدريجياً وأخيراً شعرنا بارتياح ونحن نتعرج بين القبور التي تغطي سفح التل وفي الساعة 12.15 وصلنا إلى الخندق الأسفل الذي يحيط بالقلعة ثم استدرنا إلى اليمين وسرنا بمحاذاته فوق خرائب المدينة حتى وصلنا إلى نقطة في جهته الجنوبية فاعترضنا هناك زقاق ينحدر بين المنازل وبعد أن سرنا فيه بضع مئات من اليردات دخلنا باحة فسيحة مرصوفة تنبسط أمام مسجد كبير وترجلنا.

هنا ربطنا خيولنا وتركناها في عهدة محمود، وقد نصحنا محمود قبل أن نبدأ بالعمل، بأن نضع طبنجاتنا في أحزمتنا لئلا فاجأنا بعض البدو المتربصين.

إن البناية التي وقفنا قربها من أكبر أبنية البلدة على ما يبدو، وهي مربعة وسقفها المنبسط يرتفع فوق ركائز وأقواس، ونوافذها صغيرة جداً ومكونة من حجر واحد عليه نقوش تتخللها الثقوب بشكل هندسي وفوق بابها بعض العناقيد نقشت بشكل غير ناجح، وأمامها مرتفع منارة منفردة وهي من عهد أحدث إلا أن حجارتها وحجارة الأبنية المجاورة لها كانت قد أخذت من الخرائب القديمة.

صعدت إلى سطح المسجد المنبسط وأجلت نظري فقدرت محيط البلدة بين الميلين والثلاثة بما في ذلك القلعة ولم يبقَ أي بناء عظيم الاتساع أو الجمال قائماً ولا يزال عدد كبير من المساكن الخاصة سالماً بجدرانها الحجرية الضخمة وسقوفها الحجرية وأبوابها الحجرية وتستطيع ثلاث مئة أو أربع مئة أسرة

أن تستقر في هذه البيوت بكل راحة دون أن ترمم فيها شيئاً ليس في هذه البلدة أو حولها ينابيع إلا أنه يوجد خزانات للمياه واسعة في الجهة الشرقية من القلعة وبينما كنت منهمكاً في المراقبة كان مستر بارنت يتجول في الشوارع والباحات مفتشاً عن كتابات ولكن دون نتيجة وبعد أن عاد صعدنا معاً القلعة الواقفة فوق قمة التل المخروطي وهي ترتفع من ثلاثمئة إلى أربعمئة قدم فوق البلدة، كان التل فوهة بركان ولا تزال سفوحه في بعض الأمكنة مغطاة بالمقذوفات البركانية كالتي شاهدناها في تل شهبا وكنا نمر ونحن في طريقنا إلى القلعة ببيوت البلدة حتى وصلنا إلى خندق القلعة فاجتزناه وبدأنا نصعد في السفح الصعب المرتقي وعندما وصلنا إلى أعلاه قابلنا خندق آخر أعمق من الأول وهو يطوق القلعة نفسها وترتفع الصخور التي تقوم فوقها القلعة فوق السفح وترتفع فوق جدار الخندق الداخلي حجارة منحوتة تقرب زاويتها من سبعين درجة وقد شاهدنا في أمكنة عديدة في الجدران أسوداً منحوتة بشكل بارز بينها اثنان يقابل كل واحد منهما الآخر وهما من القطع الضخم وموقعهما

في الجهة الغربية من البناء وهناك أسدان آخران بينهما نخلة، صور هذه الأسود موجودة على ارتفاعات مختلفة من الجدران وتحتل أكثرها الأماكن المخصصة لها منذ أن نحتت رغم أن لاحظت أن زوجاً من هذه الأسود مقلوب رأساً على عقب وفوق السور وفي مكان مرتفع منه كتابة عربية جميلة تطوق البناء ومدخل القلعة من الجهة الشرقية حيث كان جسر ينتصب فوق الخندق إلا أنه الآن خرب وبهذا اضطررنا للنزول إلى الخندق وتسلق جداره إلى البوابة التي أصبحت الآن خراباً أيضاً وكان إلى يمين البوابة حجر عليه كتابة يونانية تاريخها سنة 140 من عهد بصرى أي 246 ب.م، وفوق مدخل البوابة نسر ناشر جناحيه وبقربه تاجا عمودين مزينان بأنصاف التماثيل وبعد أن سرنا في مدخل البوابة دخلنا في ممر مسقوف بشكل أقواس يدور حول قسم من الجهة الجنوبية ويتصل بالداخل بفضل أبواب صغيرة طمستها الآن الخرائب وعندما وصلنا إلى نهاية هذا القبو دخلنا من باب منخفض وتسلقنا أكوام الحجارة المنحوتة فأصبحنا في الداخل فطالعتنا كومة منحوتة من

الخرائب فلم نستطع أن نكتشف غرفة واحدة أو بناءً واحداً غير مخرب إلا أنه لا يزال في الجهة الغربية الجنوبية قاعتان أو ثلاث في حالة تمكننا إلى حد ما أن نكوّن فكرة عن اتساعها وفي إحدى الأبراج المرتفعة تقدمت من باب منخفض وفي نيتي أن أجوس خلاله غير أنني شاهدت آثار أقدام حديثة العهد أمامه فوق الغبار كأنما دخل إليه بعض الرجال حديثاً وعندما لم أتبين أي أثر يدل على خروجهم اكتفيت بأن أمد رأسي إلى داخل الباب فعدت أدراجي خائباً لأن الداخل كان مظلماً وقد كنا نعلم أننا لم نكن الآن خارج حدود المدينة فحسب بل خارج حدود البلدان الآهلة أيضاً وهذه المدينة على الأخص هجرت من سكانها بسبب من هجمات أبناء الصحراء وكانت نجاتنا تتوقف على التهرب من الانكشاف لهم أو على مقدرتنا في الدفاع عن أنفسنا عندما نلتقي بهم، أشرفت من قمة هذه القلعة الرفيعة على منظر متسع لذيذ وسأقدم نتائج مشاهداتي موجزاً بقدر الإمكان. ولا يمكن القول بأن هذا الوصف قليل الأهمية فإذا وصفت ببعض التفصيل خصائص هذه المناظر ومعالم

هذه البلاد فلأن أكثر هذه المنطقة مجهولة ولسنا نملك عنها إلا الملاحظات الموجزة التي أوردها بركهاردت.

ترتفع القلعة فوق تلة مخروطية في الطرف الجنوبي من جبل حوران وعلى مسافة قليلة إلى الشمال من صلخد، وتبدو سلسلة الجبال عريضة بسفوح سهلة الانحدار وليس ظهر الجبال منتصباً إلا أن القمم المخروطية تنتصب فيها على مسافات.

لقد كانت هذه السفوح والقمم مزروعة مستغلة في الأيام الغابرة، ولا تزال معالم الجدران والحدود التي تفصل الحقول واضحة ويرتفع هذا الظهر تدريجياً حتى القليب بينما تتألف المنطقة الجنوبية الغربية من سهل غير منبسط تكثر فيه القرى الخربة والتلال المخروطية، وعلى أقدام صلخد يرتمي سهل تجثم فوقه عدة قرى خربة، وعلى مسافة قريبة منه نحو الشرق تل آخر حولت سفوحه إلى حقول متدرجة، وشاهدنا فوق هذه التلال في السهل المحيط بها عدة أشجار تين، وفي الجنوب

منخفض في السهل يمتد على مدى النظر بخط مستقيم وقد لاحظت فيه عدداً من القرى الكبيرة المهجورة أو الخربة، وإلى الجنوب الشرقي ينساب طريق مستقيم كالسهم وهو يقطع السهل ماراً بالقرب من تل يبعد عن صلخد نصف ساعة، وبالقرب من تل آخر يبعد مسافة ساعة وترتفع فوق قمته بناية كبيرة وقد أعلمنا دليلنا أن هذه الطريق توصل إلى البصرة على الخليج، وقد أكد لي غيره ذلك، ويقول المؤرخ ابن سعيد أنه يوجد طريق سلطاني من صلخد إلى العراق وأنه يوصل إلى بغداد بعشرة أيام، وقد أحصيت أربع عشرة قرية كبيرة وصغيرة فوق السهل الممتد من الجنوب إلى الشرق ولا تبعد أقصى قرية من هذه القرى أكثر من اثني عشر ميلاً من صلخد، وكانت جميعها كما قدر لي أن أراها بفضل المنظار صالحة للسكنى مثل صلخد ولكنها مقفرة، وقد رأيت البيوت في بعضها لا يزال سليماً تاماً، ورأيت كذلك الأبراج المربعة التي اشتهرت بها جميع قرى حوران القديمة، وقد علمنا من المصادر العربية بأن هذه السهول لم

يستقر فيها إنسان منذ خمس مئة سنة وهكذا نستطيع أن نكوّن فكرة عن كيفية تشييد هذه البيوت لتستطيع أن تقاوم يد الدهر.

إن عمر قلعة صلخد وتاريخها مغلفان بالظلمة مثل أكثر مباني باشان فإننا لم نعثر على دليل أو لوحة لتلقي ضوءاً على أصلها، لقد وجد بركهاردت كتابة تعطينا التوضيح المطلوب هذا إذا أمكن الاعتماد عليها وهذه الكتابة تقول أن القلعة قد بنيت في عهد سعيد الدين أبو تكمر وهذا يوصلنا إلى عهد الصليبيين ولا شك في أن هذا الحصن قد رمم في ذلك الوقت إلا أنه من المؤكد أن يكون البناء قد أسس قبل ذلك بعهد بعيد فإن خصائص البناء ورسوم الأسود والنسر الجاثم فوق المدخل والأقواس الدائرية تدل على أنها لم تكن من صنع المهندسين العرب.

إن اسم صلخد هو ذاته سلكه (بتسكين اللام) المذكورة في التوراة فالأسماء تقريباً واحد ومركز البلدة متفق مع الوصف

الذي يذكره الكتاب المقدّس «كل باشان حتى سلكة» هذه هي الجملة التي يستعملها 1- شعيا- 13 /11 من هذه الجملة ومن مقاطع أخرى تذكر اسم هذه البلدة يستنتج أنها كانت واقعة على أطراف مملكة باشان ولا شك بأن مركز هذا الحصن المشرف قد جذب أنظار حكام بصرى من الرومان فاختير مركزاً عسكرياً لحراسة الحدود فقد وجد على إحدى حجارة قبورها كتابة يعود تاريخها إلى 196 ب. م.

ونحن نعرف من المؤرخين العرب أن المنطقة المحيطة بصلخد كانت غنية بالعنب ولا يزال الرحالة في وقتنا الحاضر يرون ترتيب سفوح هذه الجبال والسهول المنبسطة المعرضة للشمس ويشاهدون مدى صلاحها لإنماء العنب والتين فقد حول السكان الأقدمون تلك السفوح إلى مدرجات وقد جمعت الحجارة التي كانت تغطي الأرض وكوّمت بشكل رجوم أو بنيت كحدود فاصلة في الحقول وفي الكروم، ومن المؤكد أن كل المنطقة الممتدة من بصرى إلى القريا ومن القريا إلى صلخد ومن

صلخد على طول امتداد النظر شرقاً وجنوباً من المؤكد بأن هذه المنطقة كانت تستغل بجد واهتمام وبأنها كانت كثيفة السكان.

وفي القرن الثالث عشر كانت أعناب صلخد وجنائن بصرى لا تزال مشهورة، وقبل أن يزور بركهاردت المنطقة ببضع سنين كان يستقر في صلخد وعرمان بعض السكان، إن حدود المناطق المأهولة تضيق يوماً بعد يوم وإذا لم تطبق الدولة سياسة إدارية جديدة فإن كل المنطقة الواقعة إلى الشرق من الأردن ستكون بلا شك معرضة لأن يهجرها أولئك الذين يشغلون الأرض للنتائج الوخيمة التي يسببها الاستبداد والجشع وسوء الإدارة فالحقول والكروم والمراعي والقرى والمدن كلها مهجورة والسكان القلائل الذين استقروا فيها يتجرعون كؤوس الشقاء فهم يرزحون تحت وطأة لصوص الصحراء من جهة ولصوص الدولة الأشد جشعاً من جهة ثانية، ولا يشذ عن ذلك إلا الدروز فإن شجاعتهم واتحادهم ومركزهم كل ذلك يمكنهم من مجابهة الأتراك والبدو معاً عندما تدعو الحاجة.

كانت صلخد نهاية مطافنا فعدنا أدراجنا ونحن كارهون، ولا يستطيع الإنسان إلا أن يعود متحسراً عندما يترك خلفه أربع عشرة قرية مهجورة في جهة ومثلها في جهة ثانية دون أن يتمكن من زيارتها، لم يصل أي رحالة حتى الآن إلى هذه الأرض الخصبة وهذه المدن المهجورة، فلقد ظلت صلخد نهاية مطاف أولئك الرحالة الذين زاروا باشان وهم قلائل، بعدها ركبنا في الساعة الثانية والخامسة والعشرين وعدنا أدراجنا من صلخد باتجاه القريا.

ويظهر أن محمود لم يكن خبيراً بهذه الطريق فقد أرجعنا مسافة طويلة في الدرب نفسه الذي سلكناه في الصباح ومن ثم استدرنا إلى اليمين واجتزنا قرية المنيذرة المهجورة وقد رأينا فيها ما رأيناه في غيرها أبراجاً مربعة وسقوفاً وأبواباً من حجر جاهزة للسكنى ولكنها غير آهلة، ثم صعدنا في الضهر القليل الارتفاع الذي سلكناه في الصباح ورحنا نتعرج في سيرنا بين أكوام الحجارة والرجوم التي جمعتها جهود العصور الغابرة، وبعدئذ انحدرنا في وادي أبو حماقة.

بدت هذه المنطقة ذات مظهر موحش رهيب فالحجارة المتراكمة والصخور السوداء المتصدعة تغطي الوادي وسفوح التلال، وأخيراً اعترضنا درباً قديماً مرصوفاً، ربما كان يصل بين القريا وصلخد بطريق بلدة العيّن الخربة، فوصلنا في الساعة الرابعة والنصف إلى قلب البلدة حيث وجدنا جماعة كبيرة من الوجوه قد اصطفت للترحيب بمقدمنا، وبينما كنت أتقدم راكباً كنت أفتش بنظري عن الزعيم الشهير إلا أنني لم أعثر بين الموجودين على الشخص الذي تنطبق عليه الصفات التي وصف الشيخ لي بها، إلا أنني ما كدت أترجل حتى تقدم نحوي من إحدى البوابات رجل وقور يلبس جبة فألقى التحية المعتادة، عندئذ وقف الحضور جميعاً وسار أمامنا الشيخ بعد أن أشار إلينا باللحاق به فأدخلنا باحة زريبة ومن ثم إلى المضافة.

اشتهر الشيخ إسماعيل الأطرش بأنه أشجع رجل في شعب شجاع، فهو يفوق بإقدامه الشخصي الزعماء الآخرين على

الإطلاق وهكذا صار له من النفوذ ما لم يكن ييسره له لا مركزه الاجتماعي ولا ثروته، إنه لم يكن كإخوانه، سليل عائلة عريقة في نسبها بل كان جندياً مغامراً فتح طريق المجد بحد السيف، إن سيماءه تدل على الرجل الذي يتحلى بالشجاعة والإرادة الفولاذية، وهو مربوع القامة فلم يبد بارزا وهو يقف إلى جانب بعض زائريه إلا أن عنقه القصيرة ومنكبيه العريضتين وأطرافه الضخمة كانت كلها تدل على قوته الفائقة وكانت تقاطيع وجهه صغيرة حسنة التكوين، نظره حاد وهيئته العامة هيئة رجل واثق بقوته ودهائه، عمامة ضخمة من الحرير، كان في حديثه موجزاً وأشد إيجازاً في أجوبته.

وقد راح يتحدث بصراحة عن الحرب الأخيرة وعن إمكانية تجديدها مؤكداً مثل كل الزعماء الآخرين عزم الدروز على رفض التجنيد رفضاً تاماً، وقد أعلمنا أن القريا كانت مركزاً للقيادة الدرزية في الحرب الأخيرة لا كما كنت أفهمت بأن مركز القيادة كان في اللجاة، فإذا ما أريد القيام بهجوم أو التعرض

للقوافل العسكرية فإن نقطة الانطلاق كانت من القريا، وقد بدا من الحديث أن للدروز عيوناً في دمشق مهمتهم إعطاء معلومات دقيقة عن كل حركة تنوي الجيوش القيام بها وعن كل قافلة للمؤونة أو الميرة التي ينوي إرسالها إلى العسكر.

كل هذا كنت أستشفه من أجوبة الشيخ المختلفة على أسئلتي ومن ثم تأكدت من ذلك تأكداً لا يتسرب إليه الشك.

وسألت الشيخ عن كيفية العلاقات بينه وبين البدو الذين ينزلون في منطقته أثناء الربيع والخريف فأكد بأن هناك صداقة شكلية بين الدروز والقبائل الصحراوية ولذا فإن التعديات قليلة الوقوع. وسألته عما إذا كانت كل قرى حوران تدفع أتاوه للبدو فقال بأن كل قرى السهل تدفع ذلك الا الدروز فإنهم هم الذين يأخذون من البدو اتاوة مقابل السماح لهم بسقاية مواشيهم من ينابيع القرى وخزاناتها.

يلبس إسماعيل في زمن الحرب خوذة فولاذية وقميصاً مصنوعة من حديد مهمتها حماية مرتديها من الرصاص ووقع

الأسنة، أما سيفه فقد أرانا إياه أنه طويل وثقيل ومن أجود الفولاذ الدمشقي.

تقع القرية في وادٍ وفي الطرف الجنوبي الغربي من جبل حوران بين وادي الزيدي وأبو حماقة خرائبها كبيرة الاتساع إلا أنني لم أتمكن من تقدير محيطها بسبب من أنني لم أتمكن من التطلع إليها من مكان مشرف وبسبب من قصر الوقت الذي منعني من القيام بجولة حول البلدة.

إن قول بكنغهام أنها كانت في أيام عزها في اتساع بصرى غير صحيح كما أن قول بركهاردت أن عدد بيوتها هو حوالي خمس مائة هو تقدير يقصر عن الحقيقة فقد رأيتها وأنا أسير بين بيوتها بأنها في اتساع صلخد أما مظهر بيوتها فشبيه ببيوت القرى الأخرى جدران من الحجارة الضخمة وسقوف من الحجارة وأبواب من الحجارة ولم يبق في هذه البلدة أي بناء ضخم أو جميل الهندسة إلا أن في الشوارع والأزقة قطعاً كثيرة من الأعمدة وشواهد أخرى على عظمتها السالفة وبين الخرائب ترتفع عدة أبراج قديمة وعلى واحد منها كتابة يونانية حاولت ان

أنسخها إلا أنها كانت مهشمة إلى درجة لم تمكنني من قراءتها وفي قلب المدينة بركة واسعة يقوم على الجهة الغربية منها بناء فريد في نوعه وهو عبارة عن صفوف من المقاعد الطويلة ترتفع كمدرجات المسرح وهي مسقوفة ويرتكز سقفها على ثلاثة صفوف من الأعمدة الصف الأول يرتكز على الأرض، الثاني على المقعد المتوسط، والثالث على المقعد الأخير، ويبدو أن هذا البناء غير سليم الذوق وأنه قد بني في عهد متأخر بمواد أخذت من خرائب الأبنية الأخرى ويوجد في مقدمة أحد المقاعد كتابة يونانية عرفنا منها أن البركة قد بنيت على نفقة البلدة في سنة 190 أي 296 ب.م وفوق بناية كبيرة إلى الجهة الشرقية من المدينة يسميها الأهالي كنيسة تبدو كتابة أقدم عهداً تاريخها سنة 34 من عهد بصرى أي 140ب.م.

إن المنطقة المحيطة بالقريا مغطاة بأكوام الحجارة غير المتضرسة في الأرض ولذا كان موقعها محصناً تحصيناً طبيعياً ضد هجمات البدو.

❖ ❖ ❖

8 شبـاط

نهضنا مع الفجر واستأنفنا التطلع إلى الآثار ومع أن الوقت كان مبكراً فقد كانت النساء الدرزيات منهمكات في أعمالهن وكانت قطعان البقر والخيول والخراف والماعز تملأ كل حوش وتسد كل شارع أو زقاق، ولذا كانت الممرات العادية غير صالحة للسير فاضطررنا إلى مجاراة النساء النشيطات العاملات اللواتي كن يسرن فوق سطوح الجدران وسقوف المنازل وكنا دهشين للخفة والرشاقة في انتقالهن من مكان إلى مكان في حين كان أكثرهن يحملن طناجر الحليب فوق رؤوسهن وغيرهن يحملن أولادهن فوق أكتافهن فكان هؤلاء الخيالة الأطفال ثابتين في مقاعدهم وهم يتمسكون من حين إلى آخر بالطنطور[1] كلما انحنت أمهاتهم فوق بركة أو تسلّقن جداراً.

(1) إن هذا الزي الفريد خاص بالنساء الدرزيات في حوران وهو أنبوب دقيق الرأس من فضة وأحياناً من ذهب يتراوح طوله بين ست إنشات وقدمين (15–60سم)، ويرتكز إلى مقدمة الرأس. وهو مغطى غالباً بالمنديل ولا تلبسه إلا النساء المتزوجات.

ذكرت القريا في العهد القديم بأنها كانت مدينة قوية ولقد لاحظت بنفسي أن عدداً كبيراً من بيوتها يحمل دلائل تؤكد أن البلدة قد بنيت من عهد قديم جداً فالأبراج المربعة القليلة وأجزاء الأبنية التي تدل كتاباتها على أنها شيّدت في العصور الأولى من العهد المسيحي هي حديثة العهد إذا قيست بالجدران الضخمة والأبواب الحجرية العملاقة في البيوت الخاصة فالبساطة في تخطيط هذه الأبنية والسقوف المنخفضة والصخور الضخمة التي نحتت نحتاً بدائياً لتدخل في بناء هذه المنازل وسماكة الجدران العظيمة كل ذلك يشير إلى عهد سابق للعهد الروماني، فالأبواب الضخمة والمصاريع الحجرية التي يبلغ سماكة بعضها ثمانية عشر إنشاً والمزاليج الضخمة التي لا تزال أماكنها ظاهرة كل ذلك من خصائص عهد كانت فيه الهندسة في طفولتها، وكانت أقصى غايات البناء المتانة والأمن، وقد نجد في باشان بعضاً من أقدم الأبنية التي يستطيع العالم أن يفخر بها فإن هياكل مصر العليا وقصورها على غاية عظيمة من الأهمية لأنها من صنع أمة من أقدم الأمم ومن أرقاها في

العصور الغابرة كما أن قصور نينوى وتماثيلها أعظم أهمية لأنها ذكريات لمدينة عظيمة قوية بعثت بعد أن ظلت مجهولة ما يقرب في ألفي سنة إلا أن المساكن الضخمة والأبواب الحجرية في باشان قد لا تقل أهمية عن الأبنية الأثرية في مصر وبلاد آشور، وإنني أعتقد بأن الأبنية التي خلفها عوج ملك باشان منذ ثلاثة آلاف سنة هي النماذج الوحيدة التي يمكن للعالم أن يعتبرها أبنية خاصة في العصور البدائية.

إن الأبنية التي قامت بتصميمها العبقرية الرومانية، وبتشييدها غنى تلك الإمبراطورية، تتخرب بسرعة في هذه الأرض بينما الأبنية البسيطة والأقدم عهداً لا تزال في عدة أمكنة سليمة وإنه لجدير بالذكر أن مدن باشان وقصورها كان معروف عنها أنها قديمة حتى في أيام اميانوس مرسلينوس الذي كتب مايلي: ((كان الأهالي القدماء قد شيّدوا الحصون والقلاع القوية بين الجبال المنعزلة والأحراج لحماية أنفسهم من هجمات جيرانهم وهنا في وسط عدة مدن تقوم بعض المدن الكبيرة مثل بصرى التي تحف بها الأسوار الضخمة..... إلا أن

أرض مؤاب قد أصبحت الآن قفراء ومدن مؤاب صارت الآن مهجورة وقصور القرية أضحت خراباً أن كلمات الرب بنعم أرميا قد تحققت.... وقع المهلك على جناك وعلى قطافك ونزع الفرح والطرب من البستان ومن أرض مؤاب وقد أبطلت الخمر من المعاصر[2].....

وبعد أن كسرنا السفرة هيأنا نفسنا لمتابعة سفرنا إلا أننا انتظرنا دقائق انتهاء الشيخ من كتابة بعض الرسائل التي كان يرغب في إيصالها إلى مستر وود في دمشق لقد سبق له في اليوم الماضي أن أشار إلى الصعوبة التي تعترضه في إيصال بعض الرسائل الهامة إلى المدينة فتبرعت بإيصال ما يريد إيصاله فشكرني لكنه لمح بأنه يخشى أن يأخذها مني الأكراد أو الأتراك وصح ما توقعه إذ أنه لم تمض أربعون ساعة على هذا الحديث حتى أخذت مني هذه الرسائل نفسها مع أشياء أخرى أغلى قيمة في وقت حمدت الله فيه على النجاة بروحي.

(2) والجدير بالذكر أن أشجار التين والعنب التي لا تزال تنمو في الكروم المنتشرة حول صلخد لا تزال هدفاً لغزوات البدو في كل سنة وأن أعمال السلب هذه هي التي جعلت صلخد والأماكن الأخرى القريبة منها مقفرة من سكانها أكثر من تخوف الأهلين من سطوة البدو الشخصية وكثيراً ما حدث أن تؤكل غلات أهالي بصرى من قبل قطعان البدو التي تمر بها.

وأخيراً جاءت الرسائل فودّعنا الشيخ الفارس وعندما ركبنا قلت للخدم اذهبوا أنتم إلى نجران وأخبروا الشيخ قاسم بأننا سنكون عنده عند غياب الشمس عندئذ التفت إلي محمود وطلبت منه أن يسير أمامنا بطريق حبران فحيانا باحترام ونحن نمرّ وهم يرددون الدعاء المعتاد (بأمانة الله).

تقع حبران فوق ضهر يساوي في ارتفاعه القمم الواقعة إلى الجنوب من القليب وهي تشرف بشكل واسع ليس على السهل الجنوبي والغربي فحسب بل على التلال الشرقية، وها أن كل الطرقات التي سلكناها من عرى إلى بصرى ومن بصرى إلى صلخد تنبسط أمام نظرنا، وها هي العفينة على بعد ميلين أو أقل تجثم في أسفل السفح فتحتل خرائبها المنتثرة مركزاً ممتازاً على ضفة الوادي، ووادي الزيدي يتعرج تحت قدمي ويظل نظري يلاحقه حتى يدخل السهل حيث تبدو بقايا القرى والمدن التي لا تحصى وقلعة صلخد التي تبدو من خلال القمم، وإلى الشرق وراء الوادي يبدو سهل أخضر تتوسطه بركة ماء واسعة ووراء ذلك قمم التلال المكسوة بأحراج السنديان فتبدو بينها أبراج سهوة الخضر الغبراء وهي تتوج مرتفعاً من الأرض.

وها هنا ضهر وعر مكسو بالأحراج وهو يسير بخط مستقيم حتى أقدام القليب الذي يرتفع خلفه بمخروطه البديع، إن سفحه الشرقي عارٍ ولونه أحمر قاتم كأنما هو مغطى بسيل من الرماد بينما اكتست جهاته الأخرى بأشجار السنديان وينساب على جانبي هذا الضهر واديان بينهما قرية الكفر الخربة، إنها لا ترى من حبران ولكني دللت على موقعها.

وقد سبق لبركهاردت أن زارها من هذا المكان ووصف خرائبها بإيجاز قائلاً: تقع حبران في نهاية الضهر الذي تحدثنا عنه أبنيتها العامة القليلة لا تزال واضحة المعالم وكثيراً من منازلها الخاصة سالم بينما صار قسم قليل منه مسكوناً اليوم وإلى الجنوب من البلدة وعلى منبسط من الصخور المرتفعة تقوم خرائب هيكل يبدو أنه قد حول إلى كنيسة ولهذا المعبد باب منخفض من الحجر يوصل إلى الداخل ومن المؤكد أن هذا الباب قد نقل إلى هنا من بناية أخرى وإلى الشرق كان.....

أما الآن فهو مهدّم. وسمعنا رجل متقدم في السن نسأل عن نقوش فقادنا إلى القمة حيث وجدت نقشاً يونانياً طويلاً، حسن الخط فوق حجر ضخم يبدو أنه كان مقاماً فوق الباب الرئيسي ويشير هذا النقش إلى أن هذا الهيكل قد بني في السنة الثامنة عشرة من عهد أنطونيوس بيوس سنة 155ب.م.

لم نستطع أن نتخلص من السكان الدروز الكرماء إلا بصعوبة فقد كانوا استقدموا من قطيع قريب منهم جدياً ليعجلوا لنا غداء وقد ندمت لإرسالي خدمنا إلى نجران لأنني رأيت أن صرف يوم في هذه المنطقة ذو فائدة عظمى فهذه سهوة الخضر والكفر والقليب قريبة المنال مني إلا أن خريطة بركهاردت جعلتني أخطئ في تقدير المسافات في هذه البقعة من الجبال، فقد رسمت في تلك الخريطة على مسافة ساعات في سفح الجبال سهوة الخضر الشرقية بينما هي في الحقيقة في صميم سلسلة الجبال وعلى مسافة ثلاثة أميال من حبران فقط.

في الساعة 10.55 تركنا حبران وسرنا مخلفين إلى يميننا تل الكفر باتجاه الخرائب الواسعة التي تسمى القنيطرة، وفي الساعة 11.40 كنا بقرب السهوة وهي بلدة كبيرة قائمة فوق تل

وقد اشتهرت سفوح الجبال المحيطة بهذه القرية وكذلك السهل الذي ينبسط أمامها بجودة التربة ولم ندخل القرية بل تابعنا سيرنا في سفح الجبال وفي الساعة 12.25 دلّنا محمود على نبع يبعد مسافة ربع ساعة عن يميننا واسمه عين خراشى وهذا النبع يقع في أسفل تلة مكسوة بالأحراج، وقد روى لنا أسطورة طريفة عن هذا النبع قال: أراد أحد الملوك في الأيام القديمة أن يبني مدينة في السهل فاختار المزيريب مكاناً لها، وبما أنه لم يكن فيها ماء فقد بنى قناة تحت الأرض وجرى فيها ماء هذا النبع ولا يزال هذا الماء جارياً ولا تزال بحيرة المزيريب تستمد مياهها من عين خراشى.

وبعد أن اجتزنا وادياً آخر وصلنا الرحى عندئذ استدرنا إلى اليسار وأسرعنا في سيرنا وبعد ربع ساعة رأينا قرية مصاد الصغيرة إلى يميننا في أسفل تلين مخروطيين، وبعد ذلك بنصف ساعة دخلنا السويداء.

ها أنا على أهبة العودة من رحلتي ولكن أعود متحسراً على عدم تمكني من زيارة المنطقة كلها، إن جمال المناظر وعظمة كثير من الخرائب وترحيب السكان القلبي وذكريات الكتاب المقدّس كانت جميعها تملأ رأسي بمشاعر لم أخبرها في رحلاتي.

الفصل الرابع عشر

السويداء، نجران، ازرع، دمشق

(نكتفي هنا بوصف نجران) «المترجم»

في الساعة الواحدة والدقيقة الخامسة والخمسين ركبنا وانحدرنا نحو السهل فقطعنا الدرب الروماني بعد عشر دقائق من سيرنا، وقد رافقتنا الحجارة المبعثرة والأرض الوعرة حتى وصلنا ولغا.

وكانت التربة بين تلك الصخور غنية، وبدت ولغا مبنية فوق تل وهي تشبه القرى الأخرى في المنطقة وعلى مسافة نصف ساعة منها نحو الشمال بدت ريمة فوق تل آخر وبينهما الوادي الصخري وبرجان يشبهان مدافن قنوات وتنفرج الأرض عن سهل ابتداء من ولغا تزرع فيه الحبوب.

وفي الساعة الثالثة والنصف وصلنا إلى قرية المزرعة الصغيرة، ومن ثم اجتزنا أحد فروع وادي قنوات وسرنا في سهل خصب إلى السجن، بدت المجدل على مسافة ساعة عن يميننا، وقد عثر بركهاردت على عدة نقوش يونانية وإلى الشمال

قليلاً بدت كفر اللحف وفيها أبنية قديمة ونقوش تعود إلى عهد جورديانوس الثاني.

السجن تقوم فوق تل وتحتوي على أبنية عظيمة المتانة وعندما مررنا بها رأينا شيخها الدرزي وعدداً من مرافقيه وقد لاقينا صعوبة في التخلص منهم إذ ألحوا علينا لقضاء الليل عندهم.

عادت هنا الأرض الصخرية إلى الظهور وكانت قطع الصخور الضخمة تنتصب في كتل مشوشة وكان علو بعضها 20 قدماً وقطرها يتراوح بين 40 و50 يردة، الكتل الضخمة من السيلان البركاني والصخور المتفرقة المنتصبة والقطع المتفتتة كانت تضفي على المنطقة منظراً موحشاً.

وكانت التربة المكشوفة تضيق وتقل كلما تقدمنا، بينما تزداد الصخور ارتفاعاً وضخامة وها هي نجران تبدو لنا بجدرانها السوداء وأبراجها المربعة وهي ترتفع منعزلة بين الصخور المتجهمة. وقد شاهدت هنا المظاهر الطبيعية الغريبة التي شاهدتها في براق وكان ذلك دليلاً على أننا قد تخطينا حدود اللجاة.

وقد لفت نظري منفرج من الأرض إلى يساري وقد غطته بعض الرجوم فأخبرني محمود أن في هذا المكان ركز إبراهيم باشا بطارياته أيام حربه مع الدروز، بينما أقيم خلفها معسكر محصن.

وصلنا إلى نجران في 5.15 دخلنا إليها في ممر ضيق يتعرج بين الصخور، وكان علينا أن نتقدم ببطء وحذر فوق الممرات الصخرية الملساء حيث كانت خيولنا تجهد في تثبيت أقدامها.

وكان يفصل بين هذه الصخور شقوق عميقة وفي بعض الأمكنة كانت هذه الصخور محاطة بالماء، ولا يستطيع الغريب أن يهتدي فيها إلى طريق هذا إذا سلمنا بأن هناك شيئاً اسمه طريق... وعندما دخلنا البلدة أرشدنا إلى ساحة واسعة في البلدة حيث وجدنا الشيخ المحترم قاسم أبو فخر في وسط وجوه البلدة وهو ينتظر وصولنا، وقفوا عندما اقتربنا وبعد التحيات المعتادة سار الزعيم أمامنا إلى بيته وكان يمشي برشاقة ووقار أمير عريق، إنه رجل في السبعين من عمره إلا أنه صلب وقوي البنية، كان مظهره جليلاً وربما مال إلى الفخفخة إلا أن صوته

ناعم وتصرفاته بسيطة مرضية، وهو الشيخ الدرزي الوحيد الذي لقيته في حوران يستعمل الطباق "التبغ" إن الشيخ أبو فخر مع الأربعة الآخرين الذين سبق لي أن زرتهم هم زعماء الدروز في هذه المنطقة.

كانت استفساراتنا الأولى في هذا المساء عن إمكانية دخول اللجاة، وقد أجاب الشيخ بتردد أنه لا خطر علينا طالما أنه يرافقنا رجل درزي، وبعد فترة من الزمن أشار علينا بالذهاب إلى إزرع والتقدم من ذلك المكان إلى داما ومن هناك إلى خبب وقد أكد لنا أن هذه الطريق توفر وقتاً بالنسبة للطريق التي كنا قد ارتأينا سلوكها وهي تمكننا أيضاً من رؤية اللجاة بشكل أفضل وكان الشيخ فارس عامر قد أكد علينا تأكيداً قوياً أن لا ندخل اللجاة إلا إذا رافقنا الشيخ قاسم أو بعض أولاده، وعندما اقترحت ذلك على الشيخ ضحك وقال أنه لا صعوبة في الدخول من إزرع وقررنا قبول وجهة السير الجديدة غير أنه لم تمضِ أربع وعشرون ساعة حتى لمسنا السبب في تردد الشيخ قاسم وأدركنا أيضاً أنه لو ذهبنا إلى داما كما كنا عازمين في أول الأمر لكان هناك احتمال قوي بأن لا نخرج منها ونحن على قيد الحياة.

9 شبـاط

بنيت نجران في الطرف الجنوبي من اللجاة تحيط بها الأراضي الوعرة والصخور الموحشة بينما تبدو من الجهة الشمالية الشرقية باتجاه عاهرة بقع صغيرة من الأرض يبدو أنها مستعملة، وقد شاهدت في داخل اللجاة أشجاراً أهمها البطم والزيتون البري.

وفي نجران عدد كبير من السكان الدروز والمسيحيين بعدد متساوٍ وهم يشغلون بقايا الأبنية القديمة وقد قدرت محيط الخرائب بميلين تقريباً وكانت أهم بناية فيها كنيسة ذات برجين ويبدو أنها استعملت في عصور متأخرة جامعاً وقد بدت على جدرانها عدة نقوش يونانية بعضها يحمل تاريخ سنة أربع مئة وثمانية وخمسين (564 ب.م) وهذا أحدث تاريخ شاهدته في حوران.

ركبنا الساعة الثامنة والنصف فودعنا مضيفنا المسن وسرنا في درب تكتنفه الصخور في اتجاه جنوبي غربي نحو قرية

الدور وما أن مضت نصف ساعة حتى وصلنا السهل فاتجهنا غرباً بمحاذاة أطراف اللجاة وفي الساعة التاسعة والربع وصلنا إلى تل صخري تغطيه الخرائب وكان إلى الجهة الشمالية من هذا التل مرج ينساب فيه نبع يدعى عين قراصة وقد سبق للرحالة سترن أن نقل هنا نقشاً يونانياً كان فوق باب الكنيسة ويعتقد جيزينيوس أن هذا المكان ربما كان قرياط.

ويرجع الأخذ بهذا الرأي فإن الاسم واتساع الخرائب وبينها كنيسة كبيرة كل ذلك يؤيد هذا الغرض وإن موقع هذه البلدة بالقرب من نبع دائم يجعلها دائماً مكاناً ذا أهمية في هذه الأرض العطشى وعلى مسافة نصف ساعة إلى الجنوب الغربي تقع الدور وفيها بقايا كثيرة تدل على الذوق والعظمة السالفين ويبدو من نقش قديم نقله سترن أن اسم هذه المدينة القديم كان دوروا، وبعد أن ابتعدنا مسافة أربعين دقيقة عن عين قراصة اجتزنا وادي قنوات وكان جافاً وهو يسير بمحاذاة أطراف اللجاة وانفتح أمامنا الآن سهل خال تماماً من الأحجار والصخور وبدت على بضع دقائق عن يسارنا قرية تعارة الخربة المنتصبة

فوق تل وعلى مسافة قريبة من يميننا شاهدنا أبراجاً مربعة في قرية أخرى مختفية بين صخور اللجاة وتابعنا سيرنا في خط مستقيم إلى بصر الحرير وقد وصلنا إليها بعد ساعة وخمس دقائق من قراصة.

تقع بصر الحرير في لسان من الصخور يدخل إليها في ممر صعب متعرج بعد اجتياز وادي قنوات وتسلق حافة صخرية وعرة وعندما كنا نجتاز هذا الحاجز الطبيعي أشار محمود إلى صخور تنتصب عن يميننا وقال أن اثنين من أخوة الشيخ فارس وواحد من أولاد أخيه قد قتلوا فوق هذه الصخور في أول معركة مع إبراهيم باشا وعندما دخلنا القرية استقبلنا بالنظرات الشزراء..... وسرعان ما اكتشفنا أننا قد تركنا وراءنا الترحيب الصادق والضيافة الكريمة.

❖ ❖ ❖